

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفم
- ومخالف الخطاب بين فنّ الترمّل والحكاية المثلّية -
د. مختار الفجاري
جامعة لصبة . المدينة المنورة

مقدمة :

يقوم التمهيد لهذا البحث على مرتكزين أساسيين: الأول "في التحوّل الأجناسي من الشعر إلى النثر" في عصر ابن المقفم والثاني "في العلاقة الاصطلاحية بين الخطاب والأدب".

1. في التحوّل الأجناسي من الشعر إلى النثر:

عرف القرن الثاني للهجرة بعصر التدوين. إذ تمّ خلاله تدوين التراث الذي ظل في السنوات السابقة مخزناً في الذاكرة الجمعية تتناقله الألسن أكثر من أن تتداوله الأقلام. لقد أدى عصر التدوين إلى الانتهاء الفعلي للثقافة الشفوية والبداية الرسمية لثقافة المكتوب. كما واكب نشأة الكتابة صعود سلطة النثر إلى جانب الشعر وهو ما جعل العلاقة بين الكتابة والنثر علاقة تلازمية إذ بقي الشعر يحافظ على سمة المشافهة

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

والإلقاء واقترن النثر بالكتابة إلى الحدّ الذي جعل المحيال العربي أحيانا لا يميّز بين مفهومي النثر والكاتب.

ومن البديهي أن يتخذ النثر له طريقا غير الشعر سواء في طرائق التعبير أم في مواضيع الكتابة والأغراض. ولئن نأى النثر بنفسه تدريجيا عن الشعر في شكل الخطاب وحاول أن يفتك منه سمة البديع التي ظلت لسنوات تسير في ركاب الشعر تحت وطأة سلطة البيان فإنّ أغراض النثر بدت جديدة كل الجدة عن أغراض الشعر بل إن النثر جعل من نقد أغراض الشعر غرضا من أغراضه. هكذا مثلا نجد ابن المقفع كما سنرى في هذا البحث يجعل من نقد عقلية المديح أحد المواضيع الأساسية في إعادة صياغة الأخلاق وتهذيبها في ضوء المستجدات الأدبية والفنية والثقافية التي طرأت في عصره. ويحلل نثريا كيف استشرت عقلية المديح بين الأفراد واستبدت بعقولهم حتى أصبحت جزءا من سجاتهم وطبائعهم.

اعتمد ابن المقفع في تحليله ذاك على الخطاب الترسلّي أحيانا وعلى الخطاب السردّي أحيانا أخرى واختار العقل وسيلة وبديلا. ولذلك يكون البحث في تراث ابن المقفع بدافع الكشف عن خصائص خطاب العقل ووظائفه الحضارية العامة انطلاقا من ممارسة نقدية حفرّياتية تكشف عن البنية الصامتة أو المغيبة أو المقموعة في خطاب حديث العهد بالتكوين صادم للذوق السائد وللسلطة القائمة في آن.

2. في العلاقة الاصطلاحية بين الخطاب والأدب:

لم يعد مصطلح الخطاب، في السنوات الأخيرة الماضية، منغلقا داخل مجال اللسانيات. بل انفتح على مختلف مجالات المعرفة لاسيما المجال الأدبي العام. كما أنّ

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

نظرية تحليل الخطاب أصبحت تمثل نقطة التقاء مختلف المعارف. إنه تطور منهجي تحليلي يسعى إلى تطوير مجالات العلوم والبحث عن الروابط المعرفية التي تجمعها في عصر معرفي واحد. والخطاب نسق من العلامات الدالة الخاصة بالباث الذي يرسله سواء كان هذا الباث مفرداً أم جمعا. وهو ما دفع علماء تحليل الخطاب إلى تصنيف أنواع الخطابات حسب مصطلح "التشكيلة الخطابية" (La formation discursive) الذي وضعه ميشال فوكو. إذ "الخطاب هو مجموعة الملفوظات التي تنتمي إلى نفس التشكيلة الخطابية"¹ ولذلك أصبحت الخطابات متنوعة تنوعاً لا حد له، ومرتبطة بالأفراد والمجموعات والموضوعات وغير ذلك من البنيات التي يمكنها أن تبث الخطاب وأن تعبر به عن الدلالة. يقول جابر عصفور: "خطاب الخطاب يجمع في نسيجه العلائقي ما يصله بدوائر علوم اللغة والاجتماع والسياسة والفلسفة والأدب والتاريخ والإحصاء والرياضيات فضلاً عن علوم الإعلام ووسائل الاتصال والدراسات الثقافية والأدبية وغيرها"² وهذا مسوغ لتصنيف الخطابات حسب الموضوعات فضلاً عن تصنيفها حسب المجموعات. فهو خطاب فلسفي وخطاب أدبي وخطاب الرياضيات، إلخ... وهكذا اعتبرنا في هذا البحث أنّ مصطلح الخطاب شديد الصلة بالظاهرة النقدية في مجال الأدب. بل إنّ النقد الأدبي ل يبدو ذا أولوية على غيره من العلوم في استثمار مكتسبات تحليل الخطاب نظراً للعلاقة الوطيدة بينه وبين

¹ M. Foucault: **L'archéologie du savoir**, Paris, Gallimard, P 153.

² جابر عصفور: "المعرفة البنية"، آفاق العصر، مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ص 33.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

اللسانيات. كما أنّ ربط مصطلح "خطاب" بالعقل عند ابن المقفع يجمع بين صلة الخطاب بموضوعه "العقل" وفي الوقت نفسه بمنتهجه "ابن المقفع". فـ"خطاب العقل عند ابن المقفع" في تصورنا النقدي يتجاوز حدود النص البنيوية المغلقة ليشمل عدة أبعاد نقدية متعدّدة هي تلك الأبعاد التي تشكل العملية التواصلية ذات الأركان المتعدّدة مثل المنتج للخطاب والمتلقي له ومقتضيات إنتاجه وتلقيه وغير ذلك ممّا يحف بعملية التواصل والدلالة. هذا هو مفهوم الخطاب والفرق بينه وبين مفهوم النص منذ القديم وإلى حدود العصر البنيوي الحديث.

وقد سلطنا الضوء، في تحليلنا لخطاب العقل عند ابن المقفع على بؤرة دقيقة منه. وضيّقنا مجال النظر علّنا نحقق صرامة منهجية مطلوبة في سياقنا النقدي العربي. نظرنا في قضية وظائف الخطاب تأسيّاً بأعلام سبقونا في ذلك. نفكّر هنا بفلادمير بروب ونظرية وظائف الخرافة¹ وتلميذه ريموند جاكوبسون في الوظائف الستة² فالأول وضع مبادئ لتحليل وظائف النصوص السردية في حين وسّع تلميذه جاكوبسون دائرة النظرية لتشمل تحليل وظائف كل رسالة يمكن أن ينتجها باث ليحمّلها دلالة يوجهها إلى متقبّل. كما أنه اختزل وظائف بروب الاحدى والثلاثين في ست وظائف

¹ كتاب فلادمير بروب "مورفولوجية الخرافة" Morphologie du conte كتب في الأصل باللغة الروسية، ولكنه ترجم إلى العربية سنة 1989 عن النسختين الفرنسية والانجليزية. تحت مسميات غير متجانسة. إذ حمل عنوانه ترجمات عديدة من أهمها: "مورفولوجية الخرافة" مع إبراهيم الخطيب. أو "علم تشكل الحكاية" مع الأستاذ محمد معتصم. أو "مورفولوجية الحكاية" لرشيدة بن مسعود. "مورفولوجية الحكاية العجيبة" للأستاذ سعيد بنكراد فضلا عن ترجمات متداولة أخرى كـ "علم بنية الخرافة".

² R. Jakobson: *essais de linguistique générale*, Ed. De Minuit, Paris, 1973.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

فحسب. وعلى هذا الأساس نطمح إلى تطبيق هاتين النظريتين نوعاً من التطبيق: هو تطبيق يسمُّها بخطابنا الخاص على خطاب العقل في تراث ابن المقفع. وقد أجهلنا هذا الخطاب في بعدين إثنين: البعد الأول هو "فن الترسل" من خلال أربعة آثار لابن المقفع وهي "رسالة الصحابة" و"الأدب الكبير" و"الأدب الصغير" والرسالة المغمورة "الدرة اليتيمة"¹. أمّا البعد الثاني فهو "الحكاية المثلية" التي وردت في القصة الشهيرة المترجمة لابن المقفع "كليلة ودمنة". لكن وظائف خطاب العقل عند ابن المقفع تستوجب النظر أولاً في السياق الثقافي الذي نشأ فيه هذا الخطاب، وفي مختلف تجليات التفكير العقلي الذي طبع الثقافة العربية في عصره ريثما نصل إلى تحليل وظائفه لاحقاً.

1. المشهد الفكري في عصر ابن المقفع:

من المعروف أنّ عصر ابن المقفع الأدبي هو النصف الأول من القرن الثاني للهجرة. وقد عاصر الدولة الأموية في آخر عهدها واتصل بالدولة العباسية في أولها. ومن المعروف أيضاً أنّ بنية الفكر العربي قد تغيّرت تغيراً جذرياً بحلول هذا القرن. ولعلّ أبرز دليل على هذا التغيّر النبوي الانتقال من بنية الخطاب الشفهي إلى بنية

¹ بقيت هذه الرسالة مغمورة ومهمّشة إلى الآن، إذ لا نكاد نذكر لابن المقفع أكثر من "كليلة ودمنة" وبصفة أقل "رسالة الصحابة" و"الأدب الكبير والأدب الصغير". والرسالة شبه مخطوطة. لأن طبعها رديئة جداً وقديمة جداً عن المكتبة الحمودية التجارية والأزهر الشريف، بتاريخ مسجل على صفحة الغلاف غير قابل للقراءة ولا حتى للترجيح. إلّا أننا يمكن أن نرجح زمن نسخها من خلال المقدمة التي كتبها لها شكيب أرسلان الذي عاش بين 9/ 12/ 1869 و25/ 12/ 1946. ولذلك نرجح أن تكون هذه المخطوطة التي تستحق تحقيقاً جديداً قد نسخت آخر مرة في الثلث الأول من القرن العشرين.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

الخطاب المكتوب. ولذلك عرف القرن الثاني بعصر التدوين: تدوين ما اختزن في الذاكرة من الماضي وتدوين ما اطلع عليه العرب من تراث إنساني متاخم للبلاد العربية. وهو ما أفرز زخما فكريا كبيرا. لذلك عرفت الثقافة العربية في أواخر القرن الأول للهجرة إرهاصات ثقافية مختلفة المشارب مما أدّى إلى إحصاب الحياة الأدبية بشكل واسع النطاق. وهو إحصاب أفرز مقولة "العقل" التي سرعان ما تحوّلت إلى أحد "الثوابت البنيوية" الأساسية للخطاب الثقافي بصفة عامة والأدبي بصفة خاصة. إفراس هذا العقل كان وليد تراكمات عاملين أساسيين: الأول "اجتماعي . ثقافي" والثاني "جغرافي . سياسي". وهما العاملان اللذان عرفتتهما الحياة العربية إبان الفتح الإسلامي وإثر تولي العرب الريادة العالمية لأول مرة في تاريخهم. وهذا يعني أنّ أسباب نشأة خطاب العقل في الثقافة العربية يمكن أرجاعها إلى سببين منبثقين عن العاملين: سبب داخلي وسبب خارجي.

يعود السبب الأوّل إلى الداخل الثقافي: أي إلى هذه التراكمات "الاجتماعية . الثقافية". إذ كان المجتمع العربي في القرن الأول للهجرة تشقّه صراعات سياسية تحوّلت بحكم الحركة الحيوية للمجتمع إلى صراعات فكرية. ثم انتهت إلى صراع متجدّد في بنية الثقافة بين سلطات مرجعية معرفية. فبعد أن هدأت الفتن واستقرّ الوضع لبني أمية ظهرت مسائل فكرية تتمحور حول قضية الخلافة. وضمن هذا الإطار حاولت الدولة المركزية إنشاء فكرانية رسمية.

لقد وجدت السلطة الرسمية نفسها أمام وضع نفسي صعب مستجد عند المسلمين: وضع خلّفته صدمة انقطاع الوحي بموت الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

اعتبرناها صدمة معرفية يمكن أن نطلق عليها "صدمة ختم النبوة" لأنها كانت فاصلة واصله بين عهدين: عهد النبوة وتسيير الإنسان عبر سلسلة الأنبياء المتواترين عبر التاريخ وعهد نضج العقل البشري وتولي تسيير شؤونه بنفسه ببلوغه الإسلام. وهذه هي حقيقة حركة الردّة. إنّها ردّة معرفية لمجموعة من العوام ما تمثّلت بعد مقدار النقلة النوعية التي جاء بها الإسلام للفكر البشري فتشبّثوا بالقديم وطفقوا يبحثون عن نبي بديل. لنقل، إذن، إنّ هذه الصدمة هي صدمة مواجهة المصير بدون تسيير غيبي.¹ ولتدرك الأمر ارتأت السلطة المركزية لذلك حلا ثقافيا تمثل في الرفع من قيمة الخليفة الذي يمثل ظلّ الله في الأرض. فهو خليفة الله في أرضه. اختاره وصيا على عبادته. هكذا كان زياد بن أبيه في خطبته البتراء الشهيرة يعلن على الملأ أنهم يحكمون بسلطان الله الذي أعطاهم. ويأمر الناس بأنّ عليهم الطاعة وعليه العدالة.² وهذه

¹ تسبّبت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم في صدمة نفسية بالنسبة إلى المسلمين لأنهم تعودوا على تنظيم حياتهم بالوحي. وقد ظهرت هذه الصدمة في بعض ردود الفعل مثل عمر بن الخطاب الذي كذّب خبر الوفاة واستلّ سيفه وهذد بقتل كل من يصدّق ذلك. وبالرغم من أنّ تصرف عمر هذا قد تكون له دوافع أمنية فإن الأمر سيان إذ يؤكّد صحة الصدمة. كما تجلّت أيضا الصدمة في ردود فعل جماعية مثل ظاهرة الردّة وخروج بعض المسلمين من العوام بحثا عن نبي بديل. بهذا يمكن أن نفسر قوة مسيلمة الذي وجد جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد صعوبة في التخلص منه. وقد أكد ابن خلدون ذلك عندما قال: "أصبح المسلمون كالغنم في الليلة الممطرة لقلّتهم وكثرة عدوّهم وإظلام الجو بفقد نبيهم". انظر "المقدمة"، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1960، ج2، ص489.

² ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج4، ص110.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

الصورة المثالية القدسية للخلافة ستنجّر عنها فكرانية كاملة سهرت الدولة على تركيز دعائمها وهي "فكرانية الطاعة".

فطاعة الله تستوجب طاعة الخليفة لأنّ كلّ ما يفعله الخليفة خير. وهذه الطاعة تستوجب القول بـ"الجبر" والقول بالقضاء والقدر مطلقا. وقد تمكّنت السلطة الرسمية من خلق فرق تنبّئ هذه الفكرانية وتدعو لها تحت غطاء عقائدي. في المقابل، بدأت تتشكل فكرانية مقابلة تمثلت في ظهور حركة مناهضة للفكر الجبري. وهي حركة القدريّة التي اعتمدت العقل في فهم العقيدة. لقد حمل روادها شعار الرفض جهرا فكانت النتيجة تصادمهم مع السلطة. وقد ذهب كبار روادها ضحايا لأفكارهم مثل الجعد بن درهم الذي دُبح يوم عيد الإضحى وغيلان الدمشقي الذي عذب حتى الموت.

لكن ذلك لم يمنع هذه الحركة من الانتشار ومن إخصاب الفكر العربي الإسلامي. تمثل ذلك في نشأة إشكاليات فكرية مثل حكم مرتكب الكبيرة ومسألة الإيمان وعلاقته بالقول والعمل. وفي خضمّ هذا الجدل الفكري الداخلي بدأت الفرق تتحول من فرق سياسية متصارعة على السلطة إلى فرق فكرية متنافسة في فهم العقيدة. ومن أبرز تلك الفرق التي كان لها تأثير على نشأة خطاب العقل نذكر فرقة المعتزلة التي أسسها واصل بن عطاء عندما خالف أستاذه الحسن البصري في مسألة مرتكب الكبيرة. وهكذا ظهرت فرقة جديدة أدلت بدلوها في هذه المسألة واعتبرت مرتكبها في منزلة بين المنزلتين. فهو لا بالكافر مطلقا ولا بالمؤمن مطلقا. بل هو فاسق. فخالفت بذلك الفرق الأخرى مثل المرجئة التي أرجأت حكمه إلى زمن الحساب معتبرة ذلك من المسائل التي ينبغي الصمت عنها ومثل فرقة الخوارج التي اعتبرته كافرا كفرا صريحا.

ثم تطورت الإشكاليات وتعمّدت فشملت مسألة التوحيد التي شحذت التفكير العقلي بين دعاة التحسيم والتنزيه ومسألة القضاء والقدر التي استهوت العقول بين دعاة الحرية ودعاة الجبر، إلى غير ذلك من المسائل التي أدت بسرعة إلى نشأة التأويل والتوجه إلى القرآن الكريم بحثا عن حلول، فكانت ثنائية المحكم والمتشابه قادحا لتطور التفكير العقلي المقارع. فنشأ الحجاج ثم علم الكلام وهكذا بدأ خطاب العقل يتحوّل إلى ظاهرة اجتماعية . ثقافية ستطغى على الإنتاج الأدبي كله.

أما السبب الثاني فهو من الخارج الثقافي، إذ يعود إلى الوضع "الجغرافي . السياسي" الذي أصبح عليه العرب بعد انتهاء الفتوحات واتساع رقعة الخلافة الإسلامية جغرافيا من المحيط إلى الخليج. وهو اتساع خلق وضعاً جديداً بالنسبة إلى الثقافة العربية.

فالعرب انفتحوا على الحدود المتاخمة لأرضهم فانفتحوا بذلك على ثقافات غيرهم من خارج الجزيرة مثل ثقافات الفرس والبيزنطيين واليونانيين وغيرهم. وهو ما أدخل على الثقافة روافد أجنبية امتزجت ببنية الثقافة الأصلية. وقد غدّى هذه الروافد ما خلقه هذا الاتساع من وجود جالية غير عربية متعايشة مع العرب المسلمين. وهذه الجالية أو الأقليات غير العربية التي عرفت بتسميات مختلفة مثل أهل الذمة والموالي والبنويين والهجناء، إلخ...، كانت تتعايش مع العرب تعايشاً سلمياً. ولكنه سلم يغطي صراعاً ثقافياً دفيناً. وهو الصراع الذي عرف بالصراع الشعبي. فالشعبوية حركة ثقافية مناهضة للثقافة العربية. هي حركة قامت بها العصبية العرقية قصد هدم مشروعية الدولة العربية انطلاقاً من هدم فكرياتها القائمة على أساس ديني. ولذلك بدأ الفكر الشعبي يشكك في الدين ويطعن في تماسك الخطاب الإسلامي وبتهمه

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

بالتناقض. وهذا الوضع الجديد والخطير دفع العرب إلى الردّ على هذه التهم. ولئن بدا الردّ في البداية محتشما في شكل مناظرات بين المسلمين والزنادقة بمختلف ألوانهم، فإنه سرعان ما نضج لينتظم في علم له أصوله ومنهجه وموضوعه. وهذا العلم هو علم الكلام. وهو علم ينظر في كيفية المحافظة على تماسك الخطاب الديني وانسجامه الداخلي من الناحية العقلية الصرفة. وقد عرّفه ابن خلدون مبرزاً موضوعه ومنهجه بقوله: "هو علم يتضمّن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والردّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة"¹

فموضوع هذا العلم إذن، هو الدفاع عن "العقائد الإيمانية" للسلف وأهل السنة، والردّ على الأفكار المضلّة الوافدة من الخارج الثقافي. ومنهجه هو الاعتماد على الأدلة العقلية. ولذلك سنجد رواد العقل كما كان هدفهم داخليا تنوير المجتمع بعقلنة التفكير والإيمان والتصدي للفكر الجبري، سيقومون في هذا المستوى بالردّ على الملاحظة والخصوم في الخارج الثقافي² والدفاع عن العقيدة من خلال عقلنتها وإظهار تماسكها المنطقي.

وإذا كان الصراع محتدما في المجال الفكري العام من خلال توظيف مقولات العقل في المواجهات مهما اختلفت، فإنّ المجال الأدبي لم يكن أقلّ هدوءا. بل إنّ الأكثرا

¹ ابن خلدون: المقدمة، ص 821.

² إنّ المقصود هنا بالخارج الثقافي كل فكر يصدر من خارج المرجع الديني حتى لو ثبت انه صادر عن مفكر عربي. فابن الروندي مثلا يعتبر فكره هنا منتسبا إلى الخارج الثقافي وقس على ذلك بقية الذين شملهم رد العلماء المسلمين. انظر مثلا كتاب الخياط "الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد" وانظر رسالة الجاحظ "فضائل المعتزلة" الذي كان ردّا على كتاب ابن الروندي "فضائح المعتزلة"، إلخ...

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

صناعة واحترافية. فالنصوص الأدبية ذات المنزع العقلي في الأدب العربي القديم كانت نصوصا صامتة تهجس بنصوص غائبة تضرر ما لا تظهر. وتكرر دلالات مسكوت عنها مغلفة بدلالات مصرح بها. ولذلك أردنا أن نقوم بتحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع. وقد اخترنا ابن المقفع دون غيره لمبررات عدة: أولها أن شكل الخطاب عند ابن المقفع يبدو مزدوجا إذ تتعامد فيه النصوص الحاضرة بالغائبة بل تتوازي وتتقاطع بطريقة ثعبانية. ولذلك فالكشف عن هذه النصوص الغائبة يغري من يطمح إلى ممارسة نقدية حفرية تعتمد أدوات تحليل الخطاب كما تمّ تحديدها واستعمالها في النقد الحديث لعصر ما بعد النبوية. فكيف تشكّل خطاب العقل عند ابن المقفع؟ ما هي نصوصه الغائبة؟ وما هي وظائفه؟

2. البنية العقلية للخطاب

مع حلول القرن الثاني للهجرة تدعّمت مقولات العقل وأصبحت تتحول تدريجيا إلى تقاليد خطابية يومية. ولما جاء ابن المقفع تدعّم هذا التشكّل بنبؤيا في خطابه وأصبح العقل يمثّل "الثابت النبوي" المركزي بل الوحيد في نصوصه. ويكفي أن نشير منذ البداية إلى أنّ ابن المقفع، بالرغم من عبارات الإيمان التي يرفعها والإحالات الدينية غير المباشرة التي يتبنّاها، فإنّنا لم نسجل له فيما كتب استشهادا مباشرا بالقرآن الكريم أو بالسنة النبوية الشريفة. في المقابل نجد كلمة العقل تغطّي ما يقارب نسبة 90% تقريبا من بنية نصوصه. وهذا يعني أنّ ابن المقفع هو الذي وضع اللبنة الأساسية لتشكّل العقل بنية اصطلاحية في الأدب العربي. وذلك من خلال الحضور اللفظي المكثّف لعبارة "عقل" في كلّ كتاباته. وقد اخترنا نموذجا من نصوصه لنكشف

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

من خلال تحليله وبواسطة الأسلوبية الإحصائية كيف أصبح يشكّل "العقل" ركنا أساسيا في بنية الخطاب الأدبي، وكيف أصبح ابن المقفع يمثل مرحلة جديدة من مراحل تاريخ العقل في الأدب العربي.

يقول ابن المقفع: "وأفضل ما رزقهم الله تعالى ومنّ به عليهم العقل الذي هو الدعامة لجميع الأشياء. والذي لا يقدر أحد في الدنيا على إصلاح معاشه ولا إحراز نفع ولا دفع ضرر إلّا به. وكذلك طالب الآخرة المجتهد في العمل المنجي به روحه، لا يقدر على إتمام عمله وإكماله إلّا بالعقل الذي هو سبب كلّ خير ومفتاح كلّ سعادة. فليس لأحد غنى عن العقل. والعقل مكتسب بالتجارب والأدب. وله غريزة مكنونة في الإنسان كامنة كالنار في الحجر لا تظهر ولا يُرى ضوءها حتى يقدحها قاذح من الناس. فإذا قدحت ظهرت طبيعتها. وكذلك العقل كامن في الإنسان لا يظهر حتى يُظهره الأدب وتقويّه التجارب ومن رزق العقل ومنّ به عليه وأعين على صدق قريحته بالأدب حرص على سعد جدّه وأدرك في الدنيا أمله وجاز في الآخرة ثواب الصالحين."¹

يتكوّن هذا النصّ كمّيّا من 124 كلمة باعتبار أنّ الكلمة، كما قُسمت في اللغة العربية، إلى حرف واسم وفعل. ولكنّا استثنينا بعض الحروف التي لا ترقى إلى المستوى الفيزيائي للكلمة مثل حروف الاستئناف والعطف وحروف الجرّ المتصلة بمجروراتها (لأنّ الإحصاء الذي قمنا به هو إحصاء "كلّ سواد قبله بياض وبعده بياض" كما عرّف القدامى البنية الفيزيائية للكلمة)

¹ ابن المقفع: *كلیلة ودمنة*، مؤسسة المعارف، بيروت، 1931، ص 29.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

فإذا حذفنا من هذا الكمّ الكلمات التي لا تدلّ على العقل ولا على ضدّه مثل حروف الجرّ المنفصلة عن مجروراتها وأدوات الاستثناء وأدوات النفي ومضاف الإضافة اللازمة مثل "كلّ" و"جميع" وعبارة "كذلك"، إذا حذفنا كل ذلك وجدنا أنّ الكمّ يتقلّص إلى 92 كلمة.

تردّدت حروف الجرّ المنفصلة في النص 15 مرّة. وتردّدت أدوات الاستثناء 4 مرات. وتردّدت أدوات النفي 8 مرّات. وتردّدت مضافات الإضافة اللازمة 3 مرات وتردّدت كلمة "كذلك" مرتين. فالمجموع المحذوف 32 كلمة. فإذا نظرنا في الكمّ المتبقي وهو، كما أسلفنا، 92 كلمة، وجدنا حضور العقل نوعين:

1. حضور لفظي: ونعني بذلك ورود كلمة "عقل" صراحة في النص. وقد تردّد هذا الحضور 19 مرّة موزعة كالآتي: 6 مرّات حضور لفظي كامل: أي بترديد كلمة "عقل" كاملة. و 11 مرة حضور لفظي جزئي موزعة بدورها كالآتي: مرتين حضور ضمير منفصل "هو" و 7 مرّات في شكل ضمير متصل "ه" ومرتين اسم الموصول "الذي" ومرتين حرف الموصول "ما".

2. حضور معنوي: ويشمل المعاني المصاحبة¹ للعقل. وهي الكمّ الأكبر في نسيج النص. وقد بلغ عدد هذه المعاني 63 كلمة باستثناء الحضور المعنوي للعقل المتمثل في الضمائر المقدّرة. وهذه المعاني نذكر منها: أفضل. الدعامة. الدنيا. إصلاح

¹ المعاني المصاحبة تعريب المصطلح النقدي (Connotation) وهو يعني المعاني التي تدور دلالاتها في فلك كلمة أخرى متسمة بالمركزية الدلالية في سياق ما. وقد ترجمه الأستاذ توفيق بكار بـ"المعاني الخافتة" أيضا.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

. معاش . نفع . دفع . مجتهد . العمل . منجي . سبب . خير . مفتاح . سعادة . غنى .
التجارب . الأدب . ضوء . قاذق . رزق . صدق . أدرك، إلخ...

نلاحظ، إذن، أنّ حضور العقل بلغ 82 كلمة من مجموع 92 كلمة شكّلت بناء النصّ. وهذا يعني إلحاق ابن المقفّع على أن يجعل من العقل الركيزة الأساسية للخطاب ووظيفته لا تقل عن وظيفة الدين، وبه يتم صلاح المعاش والمعاد. فالعقل هو أصل كلّ تكليف. ولذلك يكتشف ابن المقفع من حضور العقل في نصه ليؤسّس هذه البنية ويجعلها تقاليد خطابية وسلوكا يوميا. فهو ينحت شخصية عاقلة في سلوكها عاقلة في خطابها. فهو، إذن، يضع البناء الأساسي للمجتمع المنشود: مجتمع الحكمة. وهذه الشخصية العاقلة يريدّها أن تبنى على أنقاض الشخصية الوجدانية والانفعالية الشعرية التي بنيت في الماضي على الهوى حتى جعلت "من شأن الناس تسويق الرأي وإسعاف الهوى"¹

نلاحظ أيضا أنّ العقل في هذا النص يُطرح فكرانية بديلة للفكرانية النقلية دون أن يظهر التعارض معها. فالعقل يلتقي مع الدين في آداء وظيفة نفعية. فهما يتفقان في كونهما مصدرين للسعادة في الدنيا والآخرة. وهذا يعني أنّ ابن المقف قد نصّب خطاب العقل بديلا فكرانيا لخطاب النقل. وهو تنصيب يتجلّى في النصّ حين ربط الإيمان بالله مباشرة بالعقل. والله قد وهب العقل للبشر خير نعمة للتمييز والتكليف. إذ "أفضل ما رزقهم الله تعالى ومنّ به عليهم العقل الذي هو الدعامة لجميع

¹ ابن المقفّع: الأدب الصغير، بيروت، ص24.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

الأشياء." ومن ثمّ فالإيمان الصحيح هو الإيمان بالعقل قبل غيره لأنه السبيل إلى نعيم الدنيا والمنجي من العذاب في الآخرة.¹

كما نلاحظ أيضاً، من خلال النصّ، أنّ العقل لا يطلب لذاته وإنما لغاية نفعية. فالنصّ، وكذلك بقية نصوصه، لا تقدّم لنا كتابة "معرفية" ونظرية عن العقل وأنساقه. كما يغيب فيها حضور تجريدي للفكر والمناهج المنطقية أو الرياضية أو الهندسية التي واكبت العقل في التاريخ كما هو الشأن مع الإغريق مثلاً. وإنما نجد في هذه النصوص لغة عقائدية تتحدث عن خطاب لا ينسجم مع بنية العقيدة. فالنصّ يمجّد العقل باللغة نفسها التي يُمجّد بها الدين. فابن المقفع يتحدث عن العقل بخطاب ليس من جنسه ويكتفي بإبراز دور العقل ووظائفه الفكرانية لأنّ غايته ليست تأسيس معرفة بقدر ما هي إحداث انقلاب مفاهيمي في الثقافة والسلوك.

يعيش العقل، إذن، مع نصوص ابن المقفع لحظة التأسيس القاعدي. فهو يضع البناء القاعدي لخطاب العقل في الحضارة العربية. ويسعى إلى تربية المجتمع على تقاليد جديدة قوامها السلوك العقلي. فالإشكالية التي يطرحها ابن المقفع في تراثه الأدبي هي تأسيس مقولة العقل داخل المجتمع سلوكاً أخلاقياً وممارسة سياسية وتقاليد خطابية يومية. وبالعبرة المعروفة جداً، فهو يقوم بغسل أدمغة العامة المهتمّة سياسياً واللامبالية ليخلق طبقة من العقلاء تشارك الأمير تقرير المصير.

¹ تصل قيمة العقل عند ابن المقفع من خلال هذا التمجيد المبالغ فيه إلى درجة التقديس وهو ما سيوقعه في التناقض الذي سنأتي عليه في آخر هذا البحث. فالعقل عنده لا يمثل بديلاً فكرياً للنقل فحسب وإنما هو بديل عقائدي. وهذا ما يفسّر ربطه بين العقل والإيمان. إذ لا يتحقق رضاء الله تعالى على عبده حسب رأيه إلا بتطبيق تعاليم العقل وعقيدته.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

بهذا يمكن أن نقرّ أولاً أنّ خطاب العقل عند ابن المقفع هو خطاب ثورة النشْر على الشعور. هو ثورة على العاطفة والاندفاع الشعريين من أجل تأسيس دعائم الحكمة النثرية والرصانة العقلية. كما يمكن أن نفسّر، بذلك أيضاً، إلحاحه على تغيير بنية الخطاب الأدبي من خلال التأكيد على الحضور اللفظي المبالغ فيه لكلمة "عقل". فهو بذلك قد أحدث منعرجاً بنويوا في الفكر إذ حمّله من مجال معرفي يقوم على النقل إلى مجال معرفي يقوم على العقل. إنّ خطاب ابن المقفّع في هذه الحالة وحسب رؤية تاريخ انظمة الفكر، يؤسس لحقبة جديدة في الفكر العربي الإسلامي وينهي حقبة سابقة. إنه خطاب يتحرك على مدار من الرعب بتعبير علماء الخطاب. فهو من ناحية يسعى إلى خطاب منشود يفتقر لدعائم السلطة إلا من ذاته. ومن ناحية أخرى يتربّص به خطاب موجود يتمتع بسيادة كل سلطة. فهل امتلك هذا الخطاب من المبادئ ما به يستطيع تأسيس ذاته؟ وإلى أي مدى أثبت "مبّررات وجوده" وركز "ثوابته النبوية"؟

3. وظائف الخطاب

يعترف النص الحاضر في تراث ابن المقفع بأنه جزء من المشروع السياسي للدولة العباسية. في حين يعلن النصّ الغائب عصيان الخطاب. إنه خطاب الوجه والقفا. يتواطأ في مستوى المصرّح به مع السلطة، فيتظاهر بترويض الحياة الاجتماعية وينسج العلاقة المثالية بين الراعي والرعية من خلال كثافة أساليبه التعليمية والصيغ الإلزامية التربوية. وهذا مثبت تاريخياً. فابن المقفع كان مكلفاً في أواخر عهد بني أمية بـ"الكتابة السلطانية" وقد رأت الدولة العباسية أن تتواصل هذه المهمة لاسيما وقد انتهى عصر التكتل القبلي. وحلّ محلّه تكتل جديد تقوم فيه طبقة الكتاب والأدباء بدعم السلطة

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

ثقافيا مقابل صعود المثقف إلى منزلة الخاصة أو خاصة الخاصة أحيانا. اشتغل ابن المقفع ضمن هذه الوظيفة السياسية . الثقافية كاتباً للخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور. وكلف بترويض الجماهير بسلاح الكلمة، لأنّ السلطة السياسية تستمدّ نفوذها من سلطة الخطاب. بل الخطاب في حدّ ذاته وحسب عبارة مؤسسه ميشال فوكو " هو السلطة ذاتها التي نسعى إلى الاستحواذ عليها"¹

ولكن خطاب ابن المقفع في رسائله أوسع من أن يحتزل في وظيفة ترويض الجماهير وتدعيم الدولة بل سعى، تحت تأثير نزعته الشعوية، إلى وضع وظائف لخطاب العقل قصد تغيير الدولة انطلافاً من تغيير بنية ثقافتها القائمة على العقيدة الدينية. وهذا بالضبط ما حدّر منه الأدباء العرب في منتصف القرن الثاني لاسيما مع أبي عثمان الجاحظ وأطلقوا عليه "الخطر الشعوي". ويمكن أن نضبط وظائف خطاب العقل عند ابن المقفع في أربع: الأولى وظيفة تشييد أصول السلوك العقلي وتهذيب الأخلاق. والثانية التظاهر بوضع فكرانية سلطانية، والثالثة وظيفة تأسيس البناء الأساسي لطبقة العقلاء، والرابعة وظيفة وضع خطة انقلاية بأسلوب الحيلة العقلية. والوظائف الثلاث الأولى وردت في رسائله. أمّا الوظيفة الرابعة فقد تكفّلت بها الحكاية المثلية الموسومة بـ"كليلة ودمنة".

. الوظيفة الأولى: تشييد أصول السلوك العقلي وتهذيب الأخلاق تعتبر سبقاً لابن المقفع في تاريخ الأدب العربي. وهو سبق يبطل أطروحة أركون التي اعتبرت ابن مسكويه الذي عاش في القرن الرابع للهجرة أوّل من ألف في تهذيب الأخلاق في الأدب العربي. وقد خصص ابن المقفع رسالة "الدرة اليتيمة" لهذه الوظيفة وتوجّه بها

¹ ميشال فوكو: جينولوجيا المعرفة، نظام الخطاب، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بن عبد العال، ص 7.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

إلى شخصية العاقل في محاولة منه لبناء هذه الشخصية على أساس الحكمة الخالدة بتعبير مسكويه. يقول مخاطبا هذه الشخصية: "وأنا واعظك في أشياء من الأخلاق اللطيفة والأمور الغامضة... وأحببت أن أقدم إليك فيها قولاً لتروض نفسك على محاسنها قبل أن تجري على عادة مساويها" ¹ وقد كثف فيها الخطاب الحكمي بشكل لم يسبق له مثيل في الأدب العرب.

كما اعتمد منهج الأصول والفروع. وهو سبق آخر ابستمولوجي فضلا عن الأول الموضوعاتي. إنّ ابن المقفع هنا بهذا السبق التاريخي الثاني يصحّح خطأ معرفيا حدث في تاريخ العلوم العربية ويثبت أنّ المنهج الأصولي لم يكن إبداعا فقهيا فحسب تأسس مع رسالة الشافعي، بل إنّ الفضل في تأسيسه يعود إلى الأدب أيضا، وقبل رسالة الشافعي بنصف قرن على الأقل. هكذا قسّم رسالته متوجها إلى أهله: "يا طالب الأدب اعرف الأصول والفصول، فإنّ كثيرا من الناس يطلبون الفصول مع إضاعة الأصول، فلا يكون دركهم دركا. ومن أحرز الأصول اكتفى بها عن الفصول." ² وأصول الأخلاق عنده عقلية يطلق عليها "أصول الأمور" وتشمل كل ميادين الحياة المادية والمعنوية سواء كانت رياضة النفوس أم الأجسام. وهي الطريقة التي اعتمدها ابن مسكويه في "تهذيب الأخلاق" فيما بعد. ومن أصول الأمور النفسية قوله: "أصل الأمر في الجود ألاّ تضنّ بالحقوق على أهلها. ثم إن قدرت أن تزيد الحق على حقه

¹ ابن المقفع: الدرة اليتيمة، المكتبة المحمودية والأزهر الشريف، مصر، د. ت، ص 17

² المصدر نفسه، ص 16.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

وتطول على من لا حق له فافعل فهو أفضل¹ ومن أصول الأمور الجسدية قوله: "وأصل الأمر في إصلاح الجسد ألاّ تحمل عليه من المأكّل والمشارب والباه إلاّ خففاً. وإن قدرت على أن تعلم جميع منافع الجسد ومضاره والانتفاع بذلك فهو أفضل²."

وإذا كان ابن المقفع في رسالته هذه يشيّد، في نصوصه الحاضرة، أصول الصرح الأخلاقي للمجتمع من منطلق الدور السياسي المنوط بعهدته والمتمثل في توظيف القطاع الثقافي لخدمة الدولة، فإنّ نصوصه الغائبة تهجس بمقاصد أخرى أكثر عمقا. ذلك أنّ التثبّت في المخاطب في رسالة "الدرة اليتيمة"، وهو مخاطب مفرد عاقل ثابت لا يتغيّر (أنت)، يدرك اتجاه ابن المقفع في خلق طبقة اجتماعية جديدة تكون آفاقها الاستيلاء على السلطة بالارتقاء في السلم الاجتماعي من طبقة دنيا إلى طبقة عليا وبالتدرج في المسؤوليات السياسية من الأصغر إلى الأكبر.

في الرسالة، إذن، مخاطب ثابت لا يتغير هو ضمير المفرد المذكر أنت وهو مخاطب تنوع أشكال التخاطب حوله بشكل متعدد من قبيل "يا طالب الأدب"، "اعرف..."، "إن قدرت..."، إلخ...

إلاّ أنّ هذا الثابت شكلا يتغير مقصدا ودلالة فهو ذات منشودة يسعى إلى خلقها من ناحية وذات موجودة يضمّر نقدها من ناحية أخرى. وبناء على ثنائية الثبات والتحول ينمو نص "الدرة اليتيمة" في ثلاثة مستويات: الأول يكون فيه المخاطب فردا من العامة يتوق إلى السمو عنها والثاني هو إدخال المخاطب ضمن طبقة الخاصة

¹ المصدر نفسه، ص 17.

² المصدر نفسه، ص 16.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

وتدريبه على آدابها والثالث مساعدته على تحقيق طموحه الأرقى ألا وهو الالتحاق
بطبقة خاصة الخاصة بل تدريبه على تولي القيادة العليا فيها.

فالمخاطب الموجهة إليه النصائح في "الدرة اليتيمة" يبدو في البداية شخصا عاديا
يرتقي به إلى أخلاق الخاصة: أخلاق الطبقة العاقلة المثقفة. فيقدم له ضمن هذا
السياق من النصائح ما به يستطيع التعامل الأمثل مع العامة. ثم يتحوّل به بعد ذلك
إلى فرضية تقليده مسؤولية الوالي، فيقدم له شروط التعامل مع الرعية من ناحية
وشروط التعامل مع الملك من ناحية أخرى. وانطلاقا من الصفحة الثالثة والعشرين
يرتقي به إلى مرتبة الملك نفسه. وعبر هذه المراحل كلّها لا يخلو الخطاب من الازدواج.
إذ يقدم في وجه نصائح للسلطان، ولكنه يقدم نصائح لمرسل إليه مجهول الهوية معلوم
الطوية في الوجه الآخر. هو مرسل إليه صديق حميم لا يضمن عليه بالعلم لأنه من أهل
العلم. إنه شخصية يصنعها في هذا النص ريشما تتحول في نصوصه الأخرى إلى
طلائع للعقل والتغيير. إنّ المرسل إليه في نظرية تحليل الخطاب ليس سوى شخص
زئبقي لا يمكن القبض عليه. إذ "يُستعمل مصطلح "المرسل إليه لتعيين الشخص
الذي يتجه إليه الشخص المتكلم عندما يكتب أو يتكلم. وكثيرا ما يستعمل هذا
المصطلح استعمالا مبهما. كما أنّ عبارة "الشخص الذي توجه إليه الرسالة" هي
أيضا مبهمة... يمكن أن يكون المرسل إليه شخصا آخر غير المباشر: أي ليس هو

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

الجهة التي يتوجه إليها مباشرة المتكلم، وإنما جهة أخرى ضمنية"¹ وخير مثال على هذا الازدواج نصحه لمخاطبه الذي ربما يُبتلى بالولاية بأن يرفض المديح وأن لا يقبله من الشعراء. يقول: "وإياك إذا كنت واليا أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية، وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون ثلثة... واعلم أنّ قابل المدح كمداح نفسه."² ففي هذا الكلام مخاطبان: مخاطب يريد ذاتا عاقلة هدفها بناء دولة الحكمة وهو مرسل إليه يخلصه نهائيا من عقلية المديح المستبدّة بالعقل العربي والمترسخة في المخيال العربي بالغرض الأساسي للشعر منذ نشأته. ومخاطب ثان، هو السلطان الذي يتوجه إليه بطريقة غير مباشرة عسى أن يتخلص من هذه العاهة، دون أن يورّط نفسه. وهذه هي حيل الخطاب كما تمّ تحديدها عند ميشال فوكو بما يعرف عنده بـ"الخطاب والسلطة". وهكذا يكون المخاطب مزدوجا: مخاطبا مباشرا هو الصديق ومخاطبا غير مباشر هو السلطان. وهو مبدأ عُرف عند ابن المقفع بـ"تعليم السلطان مع التظاهر بأنه يتعلم منه". وفي الحالتين تبدو النصيحة عقلية جديدة طريفة لم يتمّ دعمها من غيره إلاّ في القرن الرابع مع أبي العلاء المعري ذاك الجامع بين الشعر والنثر في غرض النقد والتبرؤ من المديح.

إن ما قام به ابن المقفع في "الدرة اليتيمة" يعتبر هدمًا لغرض الشعر الأول (المدح) ليؤسس على أنقاضه غرض النثر الأول (النقد) هذا فضلا عن التفطن إلى علة من

¹ باتريك شارودو ودومنيك مونغيهيو: معجم تحليل الخطاب، تعريب حمادي صمود وعبد القادر

المهيوي، دار سيناترا للنشر، تونس، 2008، ص164. وفي النص الأصلي الفرنسي، **Dictionnaire d'analyse du discours, P168**

² المصدر نفسه، ص18.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

علل العقل العربي الكامنة في عقلية المديح والتي أضرت كثيرا بالخطاب السياسي في عصره. ولذلك قدم من النصائح ما يعتبره دررا لتهديب ما طرأ على الأخلاق بسبب الشعر. وليست تلك النصيحة الوحيدة التي يبدو فيها ابن المقفع ناقدا للعقل السياسي العربي في عصره، بل نجد منها الكثير مثل رفض "الافتخار" إذ يبيّن أنّ الوالي إذا قدم رأيا فلا يقدمه للافتخار فذلك من السخف، بل الرأي للانتفاع به.¹

وفي القسم المخصّص للملك ينصحه بتجنب الغضب لأنّ ذلك "يحمّله على الكلوح والتقطيب في وجه غير من أغضبه، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له. والعقوبة لمن لا يهّم بعقوبته"² والطريف أن الطريقة الخطائية غير المباشرة المتبعة عنده مكنته من أن يرفع من درجة النصيحة إلى حدود النقد اللاذع للملك إذ يأمره بأسلوب توكيدي قائلاً: " لا تكوننّ نزر الكلام والسلام ولا تفرطنّ بالهشاشة والبشاشة، فإنّ إحداهما من الكبر والأخرى من السخف"³ وهو من جهة أخرى لا ينظر إلى الملك بمهابة، بل إنّهُ يرى الملك بلاء يجلب الأهوال لصاحبه " فصاحب الملك كراكب الأسد الذي يهابه من نظر إليه وهو لمركبه أهيب"⁴

وهكذا يبدو ابن المقفع بارعا في إدارة خيوط اللعبة الخطائية. فيضمّر ما لا يظهر. وإذا ازدواج يسيطر على بنية خطابه فهو بين الوجه والقفا، بين نص حاضر يسعى إلى تأسيس بنية السلوك العقلي في المجتمع ونص غائب يترصّص بالسلطة ويسعى إلى

¹ المصدر نفسه، ص 19.

² المصدر نفسه، ص 21.

³ المصدر نفسه، ص 23.

⁴ المصدر نفسه، ص 23.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

تغييرها في ضوء فكرانية جديدة هي فكرانية العقل. واللعبة طريفة فريدة كما يعبر عنها عنوان الرسالة "الدرة اليتيمة". وكما ستكشف عنه خفايا النصوص الغائبة الأخرى في بقية مؤلفاته.

. **الوظيفة الثانية:** تظاهر ابن المقفع بوضع فكرانية سلطانية في مستوى نصه الحاضر، فبدأ بإعادة بناء هياكل الدولة بعد أن تهدّمت الهياكل القديمة بسبب التطور الحيوي للمجتمع الإسلامي وتحوله من البنية القبلية إلى البنية المجتمعية. وبعبارة ابن خلدون بعد أن " تحوّل العرب من أهل وبر إلى أهل مدن"، أي من عهد البداوة إلى عهد المدينة والمدنية. كما سعى، بالإضافة إلى ذلك، إلى تأسيس بنية السلوك والأخلاق داخل المجتمع على أساس العقل المطلوب آنذاك، وانطلاقاً من تلك الفكرانية السلطانية نفسها.

بالنسبة إلى العمل الأول، رأى أنّ الشروط الموضوعية لاستمرار وجود الدولة يستوجب بديلاً للعصبية القبلية في مجتمع ما بعد القبيلة. ولما كان العصر عصر الصعود الثقافي والعلمي، فإنّ شرط تدعيم الدولة يتمثل في خلق حاشية من فئة المثقفين المقربين للخليفة من العلماء الأوفياء. وهي بمثابة العصبية الثقافية التي تزود عن الحكم وتدعم الخليفة. فهؤلاء "هم زينة مجلسه وألسنة رعيّته والأعوان على رأيه وموضع كرامته"¹ وهذا إعلان عن انتهاء دور الدعم العسكري مع زعماء القبائل وبداية عهد دور جديد هو نوع من الدعم "التكنوقراطي" الذي تقوم به فئة العقلاء

¹ ابن المقفع: الأدب الكبير، المجموعة الكاملة، بيروت، 1973، ص 13

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

والمتقنين لصالح السلطان. فهذه الفئة "تقوم بالسلاح الذي تمتلكه، سلاح الكلمة، و"العلم". الإيديولوجيا. بنفس المهمة التي يقوم بها الجند بأسلحتهم المادية"¹

لذلك سما ابن المقفع بمنزلة المثقف/الحكيم فجعله من خاصة الأمير أو "صحابته"

² بعد أن كان هذا المثقف/العاقل مضطهدا في عهد بني أمية. فخطبة ابن المقفع هي تدشين التحالف بين طبقة العقلاء والأمير قصد قلب المعادلة. وهي أن تسعى السلطة إلى "العاقل" بدل أن يسعى "العاقل" إلى السلطة. وهذا التحالف يقبله الطرفان: يقبله الأمير من ناحية لأنّ العقل يُعتبر فكرانية صاعدة بفضل نضال رواده منذ القرن المنصرم. ومن ثمة بسط نفوذه على مساحة قاعدية هامة. ويقبله "العاقل" الشعبي المتخفي في خطاب ابن المقفع الذي لم يبق أمامه من حل سوى تنفيذ الخطة الشعبية المتمثلة في الاندساس داخل الدولة وتقويض بنيتها من الداخل انطلاقا من تقويض فكرانيتها.

ولتركيز مكانة العقلاء لدى الأمير أوهم بضرورة وجودهم إلى جانبه، من أجل حمل العامة على الطاعة، والقيام بدور الوساطة بينهم وبين الخليفة، لأنّه علّم " علماً لا يخالطه شكّ أنّ عامة قط لم تصلح من قبل أنفسها وإنها لم يأتمها الصلاح إلا من قبل إمامها... فإذا جعل الله فيهم خواصا من أهل الدين والعقول، ينظرون إليهم، ويسمعون منهم، واهتمت خواصهم بأمر عوامهم، وأقبلوا عليهم بجد ونصح ومثابرة

¹ محمد عابد الجابري: العقل السياسي العربي، ص342.

² انظر "رسالة الصحابة" التي كتبها لأبي جعفر المنصور. وقد ضبط شروط الصحابي (صاحب الخليفة) ودوره السياسي داخل البلاط وخارجه.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

وقوة، جعل الله ذلك صلاحاً لجماعتهم، وسبباً لأهل الصلاح من خواصهم.¹ كما حرص على الرفع من شأن العقلاء لدى الأمير بأسلوب ذكي خفي. "وحاجة الخواص إلى الإمام الذي يصلحهم الله به كحاجة العامة إلى خواصهم وأعظم من ذلك. فبالإمام يصلح الله أمرهم ويكبت أهل الطعن من ذلك، ويجمع رأيهم وكلمتهم. ويبين لهم عند العامة منزلتهم، ويجعل لهم الحجة والأيد في المقال على من نكب عن سبيل حقهم"² هذه الخطوة تمثل المرحلة الأولى في وضع لبنات "الفكرانية" السلطانية القائمة على العقل. وهي ضبط ملامح البنية السطحية: أي ضبط الفئات المكونة للهيكل الاجتماعي (العامة . العقلاء . السلطان). وهي في الوقت نفسه ضرب من التعمية والحيل الخطابية التي تدفع السلطة المركزية إلى الاطمئنان والغفلة عما يتشكّل في الخفاء.

أما المرحلة الثانية، فهي الانتقال إلى تشكيل البنية العميقة المتمثلة في ضبط أنماط السلوك الخاصة بكل فئة من فئات الهيكل الاجتماعي. والبداية كانت في "الأدب الصغير" الذي خصّصه لضبط سلوك العقلاء تجاه العامة.³ وتبدأ قاعدة هذا السلوك، بضرورة التمييز بين العامة من الرعايا والخاصة من ذوي الجاه القادرين اجتماعياً على الارتقاء في الدرجة. إذ يأمر العاقل قائلاً: "وعلى العاقل أن يجعل الناس طبقتين

¹ ابن المقفع : رسالة الصحابة، المجموعة الكاملة، ص222.

² المصدر نفسه، ص223.

³ تجدر الإشارة هنا إلى دلالة عنواني الكتابين: ف"الأدب الصغير" هو ضبط سلوك العقلاء تجاه العامة أما "الأدب الكبير" فهو ضبط سلوك العقلاء تجاه السلطان. وهكذا يتجلى الموقع المحوري لطبقة العقلاء في خطاب ابن المقفع. إنها في الأصل طبقة الخاصة التي يسمو بها ابن المقفع إلى منزلة خاصة الخاصة.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

متباينتين، ويلبس لهم لباسين مختلفين: فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحفظ في كل كلمة وخطوة، وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد، ويلبس لباس الأنسة واللف والبدلة والمفاوضة.¹ وفي ذلك محاولة منه لدمج فئة العقلاء داخل طبقة الخاصة، حتى يسهل عليهم التأقلم الاجتماعي مع هذا النمط من العيش ويتهذب سلوكهم ويُصقل على غرار سلوك أشرف القوم، لأنّ العامة تزيدها العين لبساطة ملبسها ورداءة منطقها.

لقد ألحّ ابن المقفع كثيراً، على ضرورة تهذيب سلوك العقلاء وفق ما يقتضيه نمط عيش الخاصة. ولذلك خصّص "الأدب الكبير" لعلاقة العقلاء بالسلطان وحاشيته من ذوي الجاه والحسب. وهي علاقة حسّاسة لا يتحمّلها إلا الأقوياء وقليل ما هم. إذ "لا يدخل في هذه الطبقة إلاّ واحد من ألف، كلهم ذو فضل في الرأي، وثقة في المودة، وأمانة في السر ووفاء في الإخاء"² ولذلك، ما فتئ يزوّد قارئه العاقل بالنصائح كقوله: "لا تكوننّ صحبتك للملوك إلاّ بعد رياضة منك بنفسك على طاعتهم في المكروه عندك، وموافقهم فيما خالفك، وتقدير الأمور على أهوائهم دون هواك، وعلى ألا تكتهم سرّك، ولا تستطلع ما كتموه، وتخفي ما أطلعوك عليه عن الناس كلهم، حتى تحمي نفسك الحديث به، وعلى الاجتهاد في رضاهم، والتلطف لحاجتهم، والتثبت لحجتهم، والتصديق لمقاتلتهم، والتزيين لرأيهم. وعلى قلة الاستقباح لما فعلوا، إذا أساءوا، وترك الانتحال لما فعلوا إذا أحسنوا، وكثرة النشر لمحاسنهم،

¹ ابن المقفع: الأدب الصغير، المجموعة الكاملة، ص 47.

² المصدر نفسه، ص 141.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

وحسن الستر لمساويهم، والمقاربة لمن قاربوا وإن كانوا بعداء، والمباعدة لمن باعدوا وإن كانوا قرباء...¹

ويتجلى من خلال هذا النص أنّ علاقة العاقل بالأمير علاقة مخوفة بالمخاطر، ممّا يستوجب الحذر المستمرّ من مغبة الوقوع في المخطور. فهي علاقة على غاية من الحساسية، لأنّ الانسجام بين رجل العقل ورجل السياسة صعب، إذ يبيّن العاقل مواقفه على المعرفة في حين يبيّن السياسي مواقفه على المنفعة. ومن هنا يبدأ الجدل الخفي بين النص الحاضر والنص الغائب في التصعيد. فالنصّ الحاضر لا يفتر يدعم السلطة ولكن الخطاب لا ينقطع أيضا عن حبك الأحابيل ونصب الحيل حتى يمرّر في خفاء وظيفة النص الغائب المتمثلة في السعي إلى تقويض دعائم تلك السلطة نفسها. فإذا كان النصّ يظهر استغلال السلطان للحكيم ليقدم له وظيفة سياسية، فإنّ النص الغائب يكشف عن استغلال الحكيم غفلة السلطان حتى يمرر فكرانية العقل بشكل سلمي ومضمون. لنتابع النص التالي حتى نعرف أيهما يستغل الآخر. يقول ابن المقفع: "إن كنت حافظا إن بلوك، جلدا إن قريوك، أمينا إن ائتمنوك، تعلّمهم وأنت تربهم أنّك تتعلّم منهم، وتؤدّبهم وكأنهم يؤدّبونك، تشكرهم ولا تكلفهم الشكر، بصيرا بأهوائهم، مؤثرا لمنافعهم، ذليلا إن ظلموك، راضيا إن أسخطوك، وإلاّ فالبعد عنهم كلّ البعد والحذر منهم كلّ الحذر."²

¹ المصدر نفسه، ص142.

² المصدر نفسه، ص142.

هذا نص واضح الازدواج بين الحضور والغياب. فموضوع كتاب ابن المقفع هو تدعيم السلطة السياسية كما بين صراحة في مقدمته. ولكن موضوع هذا النص يبدو مقبولا إذ يقدم نصائح للعاقل ويبين كيفية تعامله مع السلطان. ولذلك توجد مفارقة أولى في ازداج المخاطبين: العاقل والسلطان، ومفارقة ثانية بين موضوع الكتاب هناك ومقصد القول هنا. إنّ هذا المقصد الخفي يؤكد نص آخر تدعيما صريحا. يقول: "إن ابتليت بصحبة وال لا يريد صلاح رعيته، فاعلم أنّك قد خيّرت بين خلتين ليس منهما خيار: إمّا ميلك مع الوالي على الرعية، وهذا هلاك الدين. وإمّا الميل مع الرعية على الوالي وهذا هلاك الدنيا. ولا حيلة لك إلاّ بالموت أو الهرب."¹

لا يضع، إذن، ابن المقفع العاقل إلى جانب الأمير. وإنما يريد أن يكون إلى جانب الرعية. وهذا يعني أنه لا يسعى إلى وضع فكرانية سلطانية بقدر ما يريد هدم سلطة السلطان ليبني على أنقاضها سلطة الحكيم.

. الوظيفة الثالثة: وضع البناء السفلي الأساسي لدولة العقلاء أصبح ظاهرا منذ ثبوت غاية النص الغائب لدى الخطاب المقفعي. لقد أصبح الخطاب هادفا إلى غاية أخرى خارجة عن مجال تدعيم السلطة المركزية. وهي غاية تأسيس بديل حضاري شامل. وهو ما يستوجب بديلا مجتمعيًا كما يتطلب بديلا سياسيا.

لقد سعى في الأدبين: الصغير والكبير إلى وضع البنية القاعدية لهذا البديل المجتمعي والسياسي. فكان عبر الأساليب التعليمية وحيل الخطابة والإقناع، ينحت نموذجا لشخصية العاقل داخل المجتمع العربي الإسلامي. وهو ما يفسّره الإلحاح المبالغ

¹ المصدر نفسه، ص123.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

فيه على اعتماد العقل، وتمجيده، وذكر محاسنه التي لا تُحَدّ، وتبيان فضله الذي لا ينفذ. فهو " شبيه بالبحر الذي لا يُدرك غوره"¹ وهو ذو الفضل في الدنيا والآخرة لأنّ " غاية الناس وحاجاتهم صلاح المعاش والمعاد. والسبيل إلى دركها العقل الصحيح "² وهذه الأهمية تتجلى من خلال الأساليب التقريرية المتمثلة في كثافة الجمل الإسمية، وصيغ التأكيد والأمر... "وعلى العاقل أن يعرف أنّ الرأي والهوى متعاديان... وعلى العاقل إذا اشتبه عليه أمران فلم يدر في أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيحذره... وعلى العاقل أن يؤنس ذوي الألباب بنفسه... أشدّ الفاقة عدم العقل وأشدّ الوحدة وحدة اللجوج. ولا مال أفضل من العقل... والعقل يأذن الله تعالى هو الذي يحرز الحظ ويؤنس الغربة وينفي الفاقة ويعرف النكرة ويثمر المكسبة ويطيب الثمرة ويوجه السوق عند السلطان ويستنزل للسلطان نصيحة السوق ويكسب الصديق وينفي العدو." ³ فالعقل هو المقَدّم بامتياز إلى حدود التقديس. فهو "المنقذ من الضلال" بتعبير الغزالي. وهذه الجملة الأخيرة التي تحدث فيها عن فضائل العقل هي شبيهة بالجملة الشجرة التي تشابكت فيه الأفعال المسندة للعقل لثمر منافع كبرى للبشر. فالعقل عند ابن المقفع هو شبيه بما ذكره الله تعالى للمسلمين المؤمنين بالكلمة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين.

¹ ابن المقفع: كلبلة ودمنة، ص 171.

² ابن المقفع: الأدب الصغير، ص 11.

³ ابن المقفع: الأدب الكبير، المجموعة الكاملة، صص 323 . 324.

يمثل العقل إذن، في أدب ابن المقفع القاعدة الفكرانية التي يؤسس على جذورها نموذجاً مجتمعياً، انطلاقاً من نحت أنماط السلوك العقلاني. وهذا يعني أنّ العقل هنا لا يُطلب لذاته. وإنما يطلب لوظيفته. أي أنّه يوظّف توظيفاً فكرياً جزئياً في الأدبين: الصغير والكبير، حيث اهتمّ ببنية السلوك وتأسيس البناء السفلي الذي يكون أساساً للبناء الفوقي. يعمل، إذن، ابن المقفع بالقاعدة التي كشف عنها مؤخراً مع النقاد الماديين والمتمثلة في أنّ المجتمع هو الذي يحدّد نمط التفكير. فالسلوك الاجتماعي هو الذي يحدّد نمط الفكر السياسي. وهذا لا يعني أنّ ابن المقفع كان يحمل بذور الماركسية، وأنه كان اشتراكياً. فهذا ادعاء فكري/إيديولوجي لأنه موقف يقبل التاريخ. إنّ ذلك يعني من وجهة نظر "الحفريات" خصوصاً أنّ هذه الأفكار لدى ابن المقفع كانت من الأفكار المحظورة في عصره. فهي تدرج قديماً ضمن "الأفكار المهمة في أقبية التاريخ" بتعبير ميشال فوكو. وهي مكبوت الخطاب التاريخي الذي يرمي بصاحبه إلى التهلكة، إذا فكر يوماً في البروز أو الخروج عن أنماط النبذ التي تؤطر الخطاب. وهذا فعلاً ما وقع لابن المقفع لما خرج عن دائرة الصمت، وكسّر سياج "الكلمة المحظورة" فتعرّض للاضطهاد وأحرقت كتبه. ثم قتل على يد الخليفة نفسه الذي أهده رسالة الصحابة: أبي جعفر المنصور. فالأفكار تكون فوق الزمان وظهورها محكوم بمدى قمع الخطاب الرسمي لها. ولئن ظهرت في هذا العصر أفكار ما تتناسب مع أفكار الماضي فلا يعني أنّ فكر النخب الماضية دليل على صحة الفكر في الحاضر. بل على العكس تماماً فالفكر الحاضر الذي سمحت له ظروف مغايرة بالظهور اليوم دليل على وجود هذا الفكر عينه مقموعاً في التاريخ. فالقول بأنّ

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

الماضي يدعم الحاضر ينطوي على موقف فكري، في حين يعتبر القول بأنّ الحاضر هو كشف عن المكبوت في الماضي موقفا معرفيا حفريّاتيا. ويصدر عن نظرية تحليل الخطاب. فالفكرة التي تولد هنا والآن غير منعقدة في التاريخ ولكنها من منظور حفريّات غائبة بل هي مغيّبة ومطمورة تحت الركامات المبعثرة والكثيفة للخطاب.

خلاصة القول، إذن، إنّ التاريخ لا يدعم الحاضر وإنما على العكس من ذلك يدعم الحاضر التاريخ وهكذا تؤكد الحفريات أنّ الفكر الماركسي مقلوب على رأسه. وهي إذ تمارس قراءة لتراث ابن المقفع تؤكد أنّ خطاب العقل عنده كان يؤسس البناء السفلي لدولة الحكمة انطلاقا من تنزيل الثقافة باعتبارها البنية العليا في السياق الاجتماعي. ولذلك كانت وظيفة العقل في الأدبين وظيفة اجتماعية سلوكية أخلاقية.

. **الوظيفة الرابعة:** تنفرّع هذه الوظيفة إلى عدة وظائف جزئية منها تشكل خيوط "خطة انقلاية بأسلوب الحيلة العقلية" ذلك أنّ الشخصية التي نحتها ابن المقفع في الأدبين: الصغير والكبير نضجت عقليا في نصوص قليلة ودمنة واكتسبت من الحكمة ما وفرّ لها ثقة وقدرة مكنهاها من مواجهة القوّة المادية بمجرد الحيلة العقلية. وهذا ما جعل النصوص ذات طابع جدلي وصراع بين رموز القوّة المادية المتمثلة في السلطان ورموز القوّة العقلية المتمثلة في الحكيم. إنها جدلية الحكمة والسلطان كما يحلو لتوفيق بكار أن يسمّيها. فالأرنب والقبرة والجرذ، إلخ... كلها طلائع العقلاء الذين كان ابن المقفع يجهد نفسه في نحتهم سلوكيا في المجتمع. وفي كليله ودمنة آن لهم الرشد ليرفعوا العقل شعارا في وجه السلطة السياسية المستبدة. لقد قامت تلك الطلائع بالتعبئة الجماهيرية باسم العقل ثم بقيادة حركات انقلاية مضبوطة ومدروسة سلفا. وبناء على

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

ذلك كانت وظائف العقل في نصوص كلية ودمنة تنقسم إلى أربع وظائف فرعية وهي: الوظيفة التربوية والوظيفة التعبوية والوظيفة الاتقائية والوظيفة الانقلاية. فلنتابع تحليل تلك الوظائف في "خطاب الحكاية المثلية" عند ابن المقفع.

1- **الوظيفة التربوية:** تتجلى الوظيفة التربوية من خلال الأسلوب الرمزي القائم على المثل. فالمثل يتنزل في صميم الإشكالية البيداغوجية، لأنه يجسّم المجرد في الصور الحسية. فهو مساعدة للأذهان على تمثّل المجرد من الأفكار. ولذلك فكلّ خطاب له منزع برقماتي نفعي يميل إلى تنزيل أفكاره في شكل حكايات مثلية. نجد ذلك، مثلاً، في القرآن الكريم باعتباره نصاً نفعياً بامتياز حيث يحث على جلب المهج الضائعة إلى خيرات الإيمان. وقد حيّر أسلوب القرآن الكريم ابن طفيل فتساءل على لسان بطل قصته الفلسفية حي بن يقظان: "لمّ ضرب هذا الرسول الأمثال للناس في أكثر ما وصفه من أمر العالم الإلهي، وأضرب عن المكاشفة حتى وقع الناس في أمر عظيم من التحجيم"¹. ولم يجد لذلك تبريراً سوى إقراره بأنّ الناس على قدر من الغباء وبلادة الذهن ممّا يستحيل عليهم إدراك المجرد من الأفكار. لذلك كان مصدر حيرة حي بن يقظان جهله بطبيعة العوام تلك و"ظنّه أنّ الناس كلهم ذوو فطر فائقة وأذهان ثاقبة ونفوس عازمة ولم يكن يدري ما هم عليه من البلادة والنقص وسوء الرأي وضعف العزم وأهمّ كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً"²

¹ ابن طفيل: حي بن يقظان، ص 227.

² المرجع نفسه، ص 228.

لذلك أدرك ابن المقفع طبيعة عقل العوام فسعى إلى تعليمهم بأسلوب الحكاية المثلية كما فعل قبله ابن طفيل حين سعى إلى تعليمهم الفلسفة عبر الحكاية الفلسفية بل كما سعى قبلهما القرآن الكريم حين التصق بالمهج وسحر ألباب العرب بقصصه المعجزة وأمثاله الخارقة. فالمثل يشخص أدق المعاني وأشدّها تجريدا في صور حسية، ويجعلها لسهولة تناسب الأفهام البسيطة. كما يجعلها بعجائبها تروق أذواق الطائشين وتستميلهم بالتدرّج حتى تتمكن منهم.

والمثل عند ابن المقفع حكاية ينطق فيها الحيوان بلسان الإنسان. فيكون دليلا عليه وبديلا عنه. وهذا من شأنه أن يخلق نمطين من القراء: قارئاً يستمرّ في غبائه فيبقى يتلهمى بـ **بخيالات الحيوان** وآخر يتجاوز غبائه ليصل حدود الفطنة فيمر عبر المثل إلى **واقع الإنسان**. ومع هذا النمط الثاني تتفرّع وظائف الحكاية المثلية فتتوه العبارة في شوارع الدلالة. ويعلّم القارئ المتعلّم ما يريد الكاتب أن يبلغه لأنّه بذلك واقع في شراك المثل.

2- الوظيفة التعبوية: ترتبط الوظيفة التعبوية بالوظيفة التربوية عن طريق المثل. فالمثل أسلوب استقطاب، يفعل فعل السحر في المتلقي فهو من البيان الساحر كما تقول العرب. إنّ المثل يقوم بدغدغة الوجدان بنوع من التنويم المغناطيسي للأذهان فيجمع أنصاره بغير عناء لما يتميز به من أريحية في التفكير وهزل في التعبير. فالمثل، كما كان يقول لنا أستاذنا توفيق بكار في مدرّجات الجامعة، "يُسطّ اللهو على ظاهره كالشراك أملا في في اقتناص الأذهان الساذجة أو المهج الضائعة لاقتيادها تدريجيا إلى دفائن الحكمة."

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

والمثل عند ابن المقفع له صلة وثيقة بفن الخطابة كما شرحه أرسطو. فهو حكاية برهانية استدلالية سرديّة. إنه "يعتمد على إيراد حالات كثيرة مشابهة للحالة التي يراد الاستدلال عليها للبرهنة على أنها نظيرتها ويسمى في المنطق الاستقراء ويسمى في الخطابة المثل".¹ ويندرج المثل ضمن تقسيم أرسطو لأنواع المحاجة الخطابية التي تنقسم قسمين: أولاً البراهين الخلقية الذاتية. وثانياً البراهين المنطقية الموضوعية. وينقسم المثل بدوره إلى ثلاثة في نظر أرسطو: الأول هو المثل التاريخي وهو العبر التاريخية كالمثل المضروب في القرآن الكريم مثلاً. والثاني هو المثل التشبيهي أو المنطقي. ويكثر في محاورات سقراط كقوله وهو يعظ تلاميذه: "لا يصح الاقتراع لاختيار القضاة لأننا نكون كمن يختار المبارزين في النزاع بالاقتراع".² والثالث المثل الخرافي. وإليه تنتمي نصوص قليلة ودمنة. وهو على لسان الحيوان. وقد كان هذا النوع ذا قيمة كبيرة لدى اليونانيين القدماء... ويسوق أرسطو لهذا النوع المثل الذي ضربه ستيسيخورس (Stesichorus) لشعبه في صقلية لما اختاروا فالاريس (Phalaris) الطاغية حاكماً عليهم. إذ أخبرهم أنّ "فرساً تفرّد بمرعى. فجاء أيل فأفسد له مرعاه. فلما أراد الفرس أن ينتقم لنفسه من الأيل سأل رجلاً أن يعاونه على معاقبة الأيل. فوافق الرجل على ذلك بشرط أن يقبل اللجام وأن يحمل على ظهره وفي يده رمح. فوافق الفرس على هذه الشروط. وركبه الرجل، لكنه بدلاً من أن ينتقم له من الأيل، صار

¹ أرسطو: الخطابة، ذكره محمد غنمي هلال في "النقد الأدبي الحديث"، دار العودة، ص 107.

² أرسطو: الخطابة، تحقيق عبد الرحمان بدوي، ص 155. وانظر أيضاً "النقد الأدبي الحديث" لـ محمد

غنمي هلال، ص 108.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

الفرس من ذلك الوقت عبدا للإنسان. قال ستيسخورس: فهكذا انظروا أنتم أيضا حتى لا تصيروا إلى ما صار إليه الفرس.¹ وابن المقفع تفتن إلى هذا الخلل فجعل الجرذ في "مثل الجرذ والسنور" أكثر حنكة من الفرس، إذ لما تحالف مع عدوه السنور ضد البومة وابن عرس واتفق معه على قطع حباله تراخى بعض الشيء وقرّر أن يبقى على عقدة يرتكنه بها حتى يأتي الصيد فيكون عنه مشغولا. وقد بيّن على عكس الحصان الغيّي أنّ "عاقبة التواصل من التواصل ليست إلّا طلبا عاجل النفع ببلوغ مأموله." ثم قال له: "وأنا واف لك بما جعلت لك ومحترس منك مع ذلك، من حيث أخافك تخوّف من يصيبني منك ما ألباني إليك خوفي من مصالحتك وألجأك إلى قبول ذلك مّي: فإنّ لكلّ عمل حينا. فما لم يكن منه في حينه، فلا حسن لعاقبته. وأنا قاطع حبالك كلها، غير أيّ تارك عقدة واحدة ارتكنك بها ولا أقطعها إلّا في الساعة التي أعلم أنّك فيها عيّ مشغول..، وذلك عند معايتي الصيد." وفي ذلك تأكيد على قوة العقل وتشجيع لمن في نفسه خواطر شك أو قلة ثقة بقدره العقل على تحقيق ما يؤمل منه. ومن ثمّ تحقيق الوظيفة التعبوية لخطاب العقل ولمشروعه المنشود.

يتطابق إذن، نص الحصان في المرجعية الخطابية مع نصوص قليلة ودمنة المثلية. جمع بينهما المقام والمقال: المقام المتمثل في واقع سياسي استبدادي ومثقف يحذر قومه خطرا محدقا فضلا عن المقال الواحد القائم على أسلوب المثل الخرافي. كما جمعت

¹ المرجع نفسه، ص 155.

² ابن المقفع: كليلة ودمنة، ص 175.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

بينهما، فضلا عن هذا التطابق، الوظيفة و الفرق بينهما الجنس. ونظرا لكون الخطابة في جوهرها نمطا أدبيا موضوعه تأطير الجمهور داخل منظومة سياسية ما، فوظيفتها تعبوية بالأساس. ومن مقتضيات الخطبة الناجحة تعبوي إدراج المثل الخرافي ضمن سياقها الإقناعية وهذا ما اعتمده ابن المقفع لا في سياق خطابي ليس له عليه سلطان بل في سياق الحكاية المثلية. وذلك ليجمع أكبر نسبة من أنصار طبقة العقلاء التي أجهد نفسه في التنظير لها في الرسائل.

وهكذا يكون ابن المقفع قد حمل الحكاية المثلية من اعتبارها مجرد وسيلة وأسلوبا داخل جنس الخطابة إلى جعلها جنسا قائما بذاته. وهو لئن قام بتجنيس الحكاية المثلية في التراث العربي بالترجمة عن الهند وبالتجنيس الأدبي عن اليونان فإنه استعار لها من خطابة أرسطو الوظيفة التعبوية ذاتها التي تتسم بها الخطبة بامتياز. وجعل منها سمة وراثية أجناسية متوارثة ومنقولة بين الأجناس الأدبية عموما والأجناس النثرية على وجه الخصوص.¹

وتلتقي الوظيفة مع البناء في نصوص كلية ودمنة. بل يؤدي المثل ببناؤه ما يؤديه بجهازه الدلالي. فبناء المثل قائم على طرفين متناقضين. وقد اقترن بمكوّنَيْه منذ العناوين العديدة كـ"مثل الأرنب والأسد" و"مثل القبرة والفيل" و"مثل الجرذ والسنور، إلخ... وليس من الصدفة تقديم الضعيف على القوي في العناوين. وإنما هو دال على انتصار ابن المقفع للضعفاء، بسلاح العقل، لأنّ الصدارة في الكلام كالصدارة في الجلوس

¹ للتعلم في البعد الجنيولوجي في الأدب لاسيما بعده النظري يراجع كتاب "جينيولوجيا المعرفة"، فصل "نظام الخطاب".

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

دليل فضل. وفي أفضلية الأرنب على الأسد في الكلام أفضلية للحكمة على السلطان. ومن ثمّ فالمقام مقام تعبوي سياسي حزبي. والطرفان اللذان يشكّان بنية المثل تباعد بينهما الطبيعة وتفرّق بينهما المبادئ والغايات ويجمعهما منطق الصراع. وليس أدلّ على هذا التعارض بين الأرنب والأسد، مثلاً، ممّا يعرف لدى الناس عن شجاعة الأسد وجبن الأرنب فهما كما قال توفيق بكار: "من أضداد الحيوان بينهما من التعارض في الفصيلة والحجم والخلق والغدر والمصير، ما بين قاضم عشب وأكل لحم، وصغير حجم وكبير جثة، وفرار جبان وشجاع مقدم، وبهيمة مخفّرة وسبع جليل، وفريسة كلّ صياد وصياد كلّ فريسة"¹ ولكن ذلك لم يمنع ابن المقفع من قلب معادلة الطبيعة، ليجعل آخر النصّ شاهداً على انقلاب القيم. فيصبح الضعيف قويا والمهزوم منتصرا ولا سلاح سوى العقل. ومن كان سلاحه العقل فلا مجال للجزع. هكذا تكلم الجرذ بينه وبين نفسه عندما اكتنفه البلاء قائلاً: "ومع ذلك فمعي عقلي فلا يفزعني أمري ولا يهولني شأني ولا يلحقني الدهش"² وفي ذلك كله دعوة للجماهير لإقناعهم بسلطة العقل والتأكيد على دوره في إثبات الوجود وتأسيس الكيان، لأنّ سلاح المنطق أقوى عنده من منطق السلاح. وهذا ما أكّد عليه ابن المقفع في مواطن عديدة. ف"العقل قد يبلغ بحيلته ما لا يُبلّغ بالخيال والجنود". وأكّده أواخر النصوص إذ الأمور بخواتمها كما يقال.

¹ توفيق بكار: قصصيات عربية، تونس، 2004، ص13. وتجدد الإشارة هنا إلى أن وظائف العقل التي نحن بصدها ليست إلا توسعا في وظيفتين ذكرهما الأستاذ بكار في تطبيقه للمنهج الإنشائي على نص القرة والفيل. والكتاب في الأصل دروس في المناهج كان يقدمها لنا في كلية الآداب بمنوبة سنة 1989.

² ابن المقفع: كليلة ودمنة، ص171.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

فالأحداث في هذه النصوص تسير من الضدّ إلى الضدّ عبر تقلبات لا تخلو من سرد مشوّق، تسير من الموجود إلى المنشود، من الاستبداد إلى العدل، من الشرّ إلى الخير، من منطق السلاح إلى سلاح المنطق، من السلطان إلى الحكمة. والقارئ يتبع ذلك باهتمام كبير ويعجب. ويلتهم النصوص وهو يكذب حتى يأتيه اليقين على لسان القبرة وهي تسخر من الفيل: "أيها الطاغى المغترّ بقوّته المحتقر لأمرى كيف رأيت عظم حيلتي مع صغر جثّتي عند عظم جثّتك وصغر همّتك"¹

إنها سلطة العقل التي يحاول ابن المقفع أن يقنع بها قارئه. ويجمع تحت رايتها الأنصار. وهي سلطة أقوى من سلطة السيف باعترافه، إذ يقول: "إن كان للملوك فضل في مملكتها، فإنّ للحكماء فضلا في حكمتها أعظم، لأنّ الحكماء أغنياء عن الملوك بالعلم. وليس الملوك بأغنياء عن الحكماء بالمال".²

هذا ما تنطق به نصوص كلية ودمنة، حاملة بذلك وظيفة تعبوية سياسية لصالح مذهب العقلاء. وهي وظيفة فكرانية انطلاقا من مقاصد القول. ولكن هل يمكننا نبش أو تعرية ما لم يفكر فيه ابن المقفع بحكم نغمته المبالغ فيها على الملوك؟ وهل نستطيع، من خلال البحث عن النص الغائب، أن نثبت شعوبيته الدفينة ونغمته على ما وصل إليه العرب من ريادة عالمية بسبب ملوكهم وسلاطينهم؟ إنّ أبرز ما يمكن توضيحه في هذا المستوى من البحث هو عدم إدراك ابن المقفع الحبّ الخيالي الذي تردّى فيه. وهو ما أبعد ذهنه من أن يفكر بطريقة علمية سليمة. وإنّنا نقصد بالطريقة

¹ المصدر نفسه، ص14.

² المصدر نفسه، ص15.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

العلمية السليمة منهج القياس لاسيما القياس الفقهي. صحيح أن ابن المقفع كان بارعا في قياس عالم الإنسان على عالم الحيوان، ولكن براعته تقف عند حدود الأدب وخياله. أمّا إذا أخضعنا القياس للعلم فإنّ شرط العلم في القياس القرينة أو العلة أو بالتعبير المعاصر القاسم المشترك بين العالمين. وهذا ما سقط من فكر ابن المقفع بل ما لم يستطع أن يفكر فيه. فالأسد، مثلا، حيوان غير مفكّر على الإطلاق ولكن أن نقيس عليه السلطان أو الملك وهو بالضرورة إنسان مفكّر، شاء ابن المقفع أم أبي، يجعل القياس المقفعي ساقطاً العلة: أي خارج شروط العلم. والدليل أنّ ما كتبه ابن المقفع ظنا منه أنّ السلطان لا يفهمه هو الذي سارع بقتله على يد أبي جعفر المنصور/السلطان. فإذا قتلت الأرنب الأسد في النصّ خيالا، فإنّ أبا جعفر المنصور هو الذي قتل ابن المقفع واقعا. وهكذا نقول إنّ ابن المقفع قد حفظ شيئا وغابت عنه أشياء كما سنبيّن لاحقا.

3- الوظيفة الاتقائية: وللمثل بالإضافة إلى وظيفته السابقة وظيفة ثالثة. هي الوظيفة الاتقائية. إذ لا بدّ من رصد العدو أثناء الترويج لفكرانية العقل. وليس أشدّ عداوة للحكمة من السلطان. ولذلك كان الكتاب، أولا في شكل ترجمة. وهذا تبرؤ من الأفكار الواردة فيه، لأنّ اختيار الترجمة حيلة من الكاتب للاختفاء وراء حجاب. لعلّ خير دليل على ذلك إضافته لـ"باب الأسد والثور". وهو في القصة بمثابة القلادة من العقد. كما أنّ بعض الدراسات الحديثة أثبتت أنّ كليله ودمنة تأليفا عريبا خالصا وليست ترجمة. ويبيّن أنّ ابن المقفع ظل يخدعنا على مدار ثلاثة عشر قرنا كما خدع

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

السلطان بخطابه المحتال.¹ ويكفي القيام بدراسة أسلوبية موازنة بين كليلة ودمنة من ناحية وبقية كتب ابن المقفع من ناحية أخرى حتى تثبت أصالة الأسلوب في هذه القصة الخرافية وحتى يتأكد أن ترجمتها لم تكن ترجمة حرفية بل كان ابن المقفع قد تمثل القصة في مصدرها الأصلي وأعاد إنتاجها عربيا.

ليست الترجمة، إذن، ومن منظور تحليل الخطاب سوى تحفّ وتقية يمارسها الخطاب. بل يمارسها الكاتب في علاقته بعالم السلطة الواقعي كما يمارسها الراوي في علاقته بعالم القصة الخرافي. ثم إنّ الترجمة لا تؤدي مقاصد المؤلف بقدر ما تمرّر أفكار المترجم الذي يسعى من خلالها إلى خلق منطلق لتنفيذ الغايات الخطائية. وفي كليلة ودمنة تمّ ترويج الأفكار خاصة السياسية منها، عبر النص الأصلي، مستغلا مشروعية الخيانة في الترجمة. ثم جعل الكتاب، ثانيا، في ظاهره خدمة للسلطان لا دعوة للتمرد عليه. يقول على لسان الملك دبشليم مخاطبا الفيلسوف بيدبا: "وقد أحببت أن تضع لي كتابا بليغا، تستفرغ فيه عقلك يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية."²

والمثل الخرافي، كما رأينا مع أرسطو، هو تمويه على الأعداء وإخفاء الفكرة في ثوب الحيوان. ولما كان موضوع كليلة ودمنة سياسيًا، فقد جعل ابن المقفع من مجتمع الحيوان حجابا شفافا ينفذ إلى ما وراءه الفطن. ويقف عند حدوده الغبي. ولكي ينفذ

¹ محمد رجب النجار: كليلة ودمنة... تأليفا لا ترجمة، سلسلة الدراسات الثقافية، الهيئة العامة لقصور

الثقافة، القاهرة، 2008، ص27.

² المصدر نفسه، ص25.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

القرّاء إلى دفائن الحكمة، كان لا بدّ من مراوغة السلطان. وكما يقول توفيق بكار: "بين الحكمة والقارئ يقف السلطان. ولا بدّ لها من مراوغة هذا لبلوغ ذاك. ولا بدّ لها من لغة جمّع، تقول ولا تقول. ولا تعرف "نحوها" إلّا الفلاسفة. فالحكمة في النظم الاستبدادية القديمة "حزب سري"، حزب "المضنون به على غير أهله". بل أُمّية سرّية يتبادل أشياءها (بيدبا - برزويه - ابن المقفع) عبر العالم (الهند - فارس - العرب) حقائق المعرفة بلغة خاصّة، خلال اللغة العامة. وفق اصطلاح مضبوط.¹

4- الوظيفة الانقلابية: وفي الوقت الذي يقوم فيه الخطاب بالحجب، يقوم أيضا بالتخطيط للوظيفة الأساسية، وهي الوظيفة الانقلابية. فالانقلاب عند ابن المقفع مدروس دراسة دقيقة لا مجال فيها للأخطاء أو الثغرات. وتلك هي مزاعم التفكير العقلي أو المنطقي منذ أثينا الإغريق إلى باريس الحداثة، حيث ظلّ الاعتقاد في مبدأ عدم التناقض. ولكن هيهات فقد ولى عهد العقل ومات، كما سنرى لاحقا. ولكن في مستوى التحليل نكتفي بالإشارة إلى أن الحدث في خطاب العقل المقفعي يخضع للتخطيط المسبق، والحركات متدرّجة تصاعديا باتجاه الحركة القصوى. وتقوم الحركة الانقلابية على ثلاث حركات ثانوية صغرى. هي الحركة التمهيدية والحركة الاستفزازية والحركة الإجهاضية.

¹ توفيق بكار: قصصيات عربية، ص 13. والكتاب في الأصل مجموع الدروس التي كان يقدمها لنا في

درس مناهج البحث بكلية الآداب بمنوبة سنة 1988 وإني أقر هنا أنّ شروحي هذه مستلهمة من أستاذي العزيز أطلال الله عمره وجزاه الله كل الخير.

● **الحركة التمهيدية:** هي التي تقوم بالوظيفة التمهيدية. فالسلطان غافل. وهي تمّد له في غفلته، وتوهمه بأنّ الأمر هادئ مستقرّ. ثم تقوم باستفزازه، لتتأكّد من غبائه التام ونومه العميق. ففي نصّ "مثل الأرنب والأسد" تأتمر الوحوش من أجل تقرير المصير. وتتجاوز عهد الفوضى، عهد استئثار القويّ بالماء والخصب. وتوهم الأسد أنّ العهد الذي يرضي الطرفين هو عهد "الدولة الجبائية"، عهد نظام الضرائب، عهد تقديم غذاء الأسد اختياراً بدل أخذه اضطراراً. فالوحوش أقرّت للأسد بسلطة النفوذ. ولكنها في نفس الوقت جعلت هذا النفوذ محدوداً. فبعد أن كان حرّاً يأكل متى جاع وكم شاء سيكتفي مستقبلاً بوجبة واحدة في اليوم. وهي حركة استفزازية من الوحوش تجاه الأسد، لتتحمّس موقفه وردّ فعله ومدى ذكائه وفطنته. ولكي تدفعه إلى الموافقة ركّز الخطاب على التعب الذي يصيبه أثناء الصيد. فزيّنت له الاقتراح بالراحة. وقالت له على لسان الأرنب، تلك الذات المفكرة من طلائع العقل: "إنّك لا تصيد الدابة منّا في يوم إلّا في تعب ونصب. وإنّا قد رأينا رأياً لنا ولك فيه راحة. فإن أنت أمنتنا فلم تخفنا، جعلنا لك في كلّ يوم دابة نرسل بها إليك عند غذك".¹ وهو كلام ملغوم. أخطر ما فيه هو عزل الأسد بالراحة والنوم. ومن ثمّ إغراقه في الغفلة عمّا يجري في الغابة من حركات تغيير تهدّد نفوذه. ثم كذلك جسّ نبضه وتحسّس ردّ فعله. فإن رفض فهو ذات مفكّرة مثلهم ومن كان معه عقله فلا يفرق. وإن قبل فهو من الأغبياء، لأنّ ذلك سيحدّ من نفوذه تدريجياً للزجّ به في جحيم غضبه بعد ذلك. ومن ثمّ الإلقاء به إلى حتفه. وقد انطلت الحيلة عليه. ولذلك مرّ الكاتب بسرعة إلى

¹ ابن المقفع: **كلیلة ودمنة**، ص 82.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

الحركة التنفيذية. وانتقال السرد بسرعة من التمهيد إلى التنفيذ دليل على أنّ الخطّة موضوعة سلفاً من قبل طلائع العقل. وهو ما يدلّ على دور العقل في التخطيط للمستقبل. ومن طلائع العقل في هذا المؤتمر الأرنب التي تلح على إخفاء الخطّة. وتحتفظ دائماً لنفسها بالخيط المتحكم في تنفيذها. وتلك هي ميزة التفكير العقلي الذي لا يترك مجالاً للأخطاء. فهو تفكير ديبلوماسي يسبق حالة إعلان الحرب. ويكون له دور في كسبها.

ونلاحظ من حيث السرد، أنّ الراوي مرّ بسرعة من التموهيه إلى التنفيذ، من عهد الفوضى إلى عهد الحكمة، دون أن يفصّل لنا الأحداث في عهد الجباية، أو أن يبيّن لنا كيف تعايشت الوحوش مع الأسد منذ الاتفاق إلى أن وقعت القرعة على الأرنب. وهو تركيز على "الوظائف الركنية" للسرد، كما ضبطها رولان بارط أو "العناصر الأساسية" بمصطلحية تودروف. وابن المقفع لا يهتمّ كم استغرق عهد الجباية من الزمن. وإنما همّه هو إسقاط الأسد وتدشين عهد اللادولة، عهد الحكمة. لذلك اختزل بسرعة الزمن بحرف الجرّ "ثمّ". وهو حرف من معانيه الفصل بين حدثين بمهلة من الزمن. هكذا قال الراوي: "فرضي الأسد بذلك وصالحهم عليه وقرّر ذلك له. ثمّ إنّ أرنبا أصابتها القرعة..."¹ فسرعة المرور من الحركة الممهّدة إلى الحركة التنفيذية دليل على سرعة الأداء والدقّة في التنفيذ.

في نصّ "مثل القبرة الفيل"، كانت الحركة التمهيدية الاستفزازية تكمن في تعمد القبرة وضع بيضها على طريق الفيل. والتعمد يتضح عندما نعرف أنّ من عادة الطيور

¹ المصدر نفسه، ص 82.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

أن تبيض بعيدا عن الطرق والممرّات ومسالك المارّة لاسيما طريق الفيل. فهي أشبه بالطرق المعبّدة لشكل خف الفيل وثقل وزنه وضخامة جثته. ولكنّ القبرة، رغم ذلك، باضت على طريقه عمدا وتحسّسا لموقفه وتطلّعا لردّ فعله. والدليل على ذلك أنّها جاءت " فوقعت على رأسه باكية ثم قالت: أيها الملك لم هشّمت بيضي وقتلت فراخي وأنا في جوارك؟ أفعلت هذا استصغارا منك لأمرّي واحتقارا لشأني؟ فقال: هو الذي حملني على ذلك."¹ ونلاحظ هنا كيف وجّهت القبرة الفيل إلى الإجابة المطلوبة حين سألتها: "أفعلت هذا استصغارا منك لأمرّي واحتقارا لشأني؟" وسؤالها هذا فخ منصوب من طرفها، لأنه إذا استخف بها فذلك علامة على غفلته واعتزازه بقوته. أمّا إذا تفتّن إلى هذا التعمّد والاستفزاز. وسألها عن سبب اختيارها هذا المكان دون غيره، فإنّ الأمر يصبح خطرا. والحركة الانقلابية تصبح مهدّدة بالإحباط. لكن الفيل كالأسد وقع في الفخ الأول ريثما تتمّ الحركة التنفيذية.

● **الحركة التنفيذية:** التنفيذ صعب في هذه الوظيفة. وصعوبته تتجلّى من خلال شروطه الثلاثة التالية: وهي المحافظة على السريّة، والدقّة في التنفيذ والسرعة في الأداء. فالتكتّم واجب، لأنّ التنفيذ ليس من مشمولات العامة، وإنّما هو من مشمولات الطلائع. والخطة الانقلابية كالخطة الحربية لا يطلّع عليها إلا القادة من كبار الضبّاط. لذلك تخفي الأرنب عن الوحوش الخطّة. بل لم تكشف منها إلّا ما يخدم الغرض. إذ اكتفت بالقول: " إن أنتن رفقتن بي فيما لا يضرّكنّ لعلّي أن أرحكنّ من الأسد.

¹ المصدر نفسه، ص13. كما تجدر الإشارة إلى أنّ تضحية القبرة بفراخها يندرج ضمن الوظيفة التعبوية.

فالعاقل يضحي من أجل المصلحة العامة بمصلحته الخاصة.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

فقلن: وما الذي تأمرين من الرفق بك؟ قالت: تأمرن من ينطلق معي ألاّ يتبعني لعلّي أن أبطئ على الأسد بعض الإبطاء حتى يتأخّر غذاؤه.¹ والقبرة أيضا، ذهبت إلى الطيور فقالت: "للعقاقع والغربان: أحبّ منكّن أن تصرن معي إليه فتفقدن عينيه. فإنّي أحتال له بعد ذلك بحيلة أخرى."²

أما الدقة في التنفيذ فهي تكمن في تطبيق مبدأ "لكلّ عمل حين" كما رأينا مع "مثل الجرذ والسنور". فالجرذ، ما إن توفرت له فرصة التحكم في عدوّه حتى أبقى على الخيط في يده يدير به تفاصيل اللعبة. كما تكمن الدقة في التنفيذ أيضا في إسناد المهام الرئيسية، أو ما يسمّى في الحرب بالضربة الأولى الخاطفة، إلى من هم أهل لها. وليس أحسن في نظر ابن المقفع من إسناد هذه المهمّة إلى "العصبية العرقية" بالنسبة إلى القبرة. فالطيور هم عشيرتها ومن فصيلتها وموطن سرّها. وهو بذلك سبق ابن خلدون في اكتشاف مبدأ العصبية باعتباره القانون التاريخي المتحكم في إنشاء الدول وإسقاطها.

وكالتنفيذ في الفيل التنفيذ في الأسد. كان الانقلاب مدروسا بدقة وطُبّق على مراحل حذرة. تأخير عن موعد الطعام لإثارة غضب الأسد. وقد أكّد علم النفس أنّ الجوع يوتّر الأعصاب ويثير الغضب ويعمي البصيرة. والأرنب يعرف أنّ الغضب يذهب العقل. وإذا ذهب العقل ضاع الوجود. وهذا دليل على دهاء عقلي لا يتميّز به "إلاّ واحد من ألف" كما قال ابن المقفع. ثم وصول هادئ وكلام بريطة جأش.

¹ المصدر نفسه، ص 82.

² المصدر نفسه، ص 14.

• **الحركة الإجهاضية:** لا يكاد الزمن يدرك بينها وبين التنفيذ. فالعدوّ يجب أن يؤخذ على غرته حتى لا يستردّ أنفاسه. ولا بدّ من السرعة في الأداء. ولذلك طارت القبرة كالطائرة إلى الضفادع: جيش البرّ. وأوكلت لهم بحكم المصير المشترك الذي يجمعهما المهمة الإجهاضية. والضفادع من ذوي العصبية المصلحية إذ تشترك مع الطيور في الضعف. وهما معا طعاما للثعابين يموتان معا من العطش بسبب الفيل. فالثعابين تنزل الماء لأكل الضفادع وما صادفها من الطيور. والطيور لا تنزل الماء إلّا إذا سمعت نقيق الضفادع. وإذا صممت الضفادع فجأة تنزعج الطيور وتطير. تلك حكمة الله تعالى في خلقه. والفيل ينزل فيبتلع العين في جوفه فيتركهما معا للعطش. لذلك يجمعهما المصير المشترك. وموت الفيل فيه فائدة للجميع، علاقة شبيهة بعلاقة العالم الثالث بالعالم الامبريالي. مصير واحد فيما تحالف فجأة وانعقاد. وإما اختلاف فاندثار.. وعلى هذا المنطق قام التحالف وبه نجح الانقلاب. وكذلك سارعت الأرنب بالأسد، بعد أن أوهمته أنّ ملكه مهدّد بأخيه: أسد مثله. فعمى الملك بصيرته. وهبّ إلى حتفه بنفسه. وألقت به في جحيم غضبه. فمات بظلّه.

هكذا كان العقل يخطّط بدقة لا يترك ثغرة ينفذ منها الخصوم. وقوة العقل أمضى من حدّ السيف. في تصوّر العقلانيين من المنطقيين الإغرق إلى العقلانيين المحدثين. وهكذا كانت الوظيفة الانقلايية في مشروع ابن المقفع العقلي الذي بدأه بوضع البناء السفلي في مستوى المجتمع. وانتهى بتركيز دولة العقل في مستوى البناء العلوي، مستوى السلطة. وسلاحه في ذلك الحكمة العقلية. ولكن هل فعلا كان مشروع ابن المقفع مشروعا واقعيا خاضعا لمبادئ العلم أم أنّه كان طوباويا مغرقا في الحلم؟

4. طوباوية خطاب العقل عند ابن المقفع

اعتمد ابن المقفع على العقل وأجهد نفسه في أن يحافظ كما رأينا على عدم التناقض. وحرص كل الحرص على أن لا يترك إلى الصدفة أية فرصة. ففكر بدقة ونفذ بسرعة ودهاء وأوصل إلى انتصار الحكمة على السلطان. ولكن هل تجاوز ذلك حدود النص؟ ما هي الأسباب التي جعلت فكره يُقبر في الكتاب؟ إنّ السبب العميق يقع في بنية خطاب العقل عموما وخطاب العقل عنده هو بالذات.

لتحديد الأبعاد الطوباوية لخطاب العقل عند ابن المقفع لا بد من مناقشة مسألة العقل من الناحية الفلسفية. لقد توصل فكر ما بعد الحداثة إلى نظرية موت العقل التي تعني أنّ لا وجود لعقل جوهراني موضوعي الوجود لا يتغيّر. بل كل ما هنالك أنّ الإنسان له ملكة للفهم تتكوّن من عناصر فيزيائية متعدّدة في الجسم. فالعقل في هذا المستوى الأول أصبح منفثا على ما كان يبدو نقائص له مثل القلب والمخيال والشعور والعاطفة بل حتى الجنون. وقد قال فوكو في هذا السياق: " إنّ الجنون هو عودة إلى العقل بذاكرة جديدة." وهذا يعني أنّنا عندما نفكر لا نفكر بملكة العقل وحده بل التفكير عملية معقدة تعمل فيها كل خلايا الإنسان ومداركه، وإن كان للدماغ في هذه العملية الفاعلية الأكبر. ولذلك يحسن أن نطلق على كل هذه العوامل مجتمعة "ملكة الفهم".

وملكة الفهم هذه ليست مطلقة وليست غير قابلة للتناقض كما كان التصور التقليدي إلى حدود الحداثة وعقلانيّتها الغريبة ممثلة في الديكارتية. إنّ العقل بعد كتاب كانط "نقد العقل الخالص" أصبح شيئا تاريخيا متغيرا. بمعنى أنّنا عندما نفكر

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

هنا والآن سننشئ فكريا مغايرا لما سيكون بعد حين. فالعقل مرتبط بالواقع ومتغيراته وبما يطرأ على حياتنا من تقلبات. إذن لا يوجد عقل بل يوجد تفكير متغير غير ثابت مختلف مع الآخر. وهنا يأتي داريدا ليبين في فلسفة الاختلاف أنّ الاختلاف أدى إلى تدرّج مفهوم العقل. هذا هو سر وجود عقول متعدّدة ضمن فلسفة الخطاب. بل إنّ مفهوم الخطاب نفسه قد حلّ بديلا للعقل المقبور. في البداية بعد أن انتهى العقل الجوهراني بدأنا نسمع عن عقول متعدّدة تعدد البنيات العاقلة. مثل "عقل عربي" و"عقل إسلامي" و"عقل غربي" و"عقل جامعي" و"عقل رياضي" و"عقل صحفي"، إلى ما لا نهاية من البنى اللامتناهية. بل إنّ البعض ما كان يتردّد في وصف الخطاب الديني بأنه عقل إلهي. ولكن الآن، ما عاد المجال يسمح بهذه التسميات، لأن ما نعتقد أنه عقل ليس في الحقيقة سوى الخطاب.

وهذا هو سر معارضي لمشروعي العقل العربي عند الجابري والعقل الإسلامي عند أركون. فعندما يعتمد أركون مثلا: "كلمة عقل فهو يفترض بالضرورة كيانا ما قبلها، ذلك أنّ نقد العقل الإسلامي يعني أنّ هناك وجودا للعقل في المستوى المادي وما على الناقد إلّا استخراجا وتحديده. ولكن الحقيقة غير ذلك، بدليل أنّ مواصفات العقل الإسلامي التي ضبطها لنا أركون ليست نهائية وإنما ذاتية. فلو افترضنا ناقد آخر للعقل الإسلامي فإنه سيحدّد لنا عقلا مغايرا بالضرورة والسبب أننا لا نحدد عقلا في الواقع. وإنما نحدد ذاتنا من خلال الخطاب"¹ بمعنى أنّ العقل مسألة فهم. ومن ثمّ، لا يوجد عقل. بل يوجد فهم فردي له، وعدد العقول بعدد الأفهام، بل

¹ مختار الفجاري: نقد العقل الإسلامي عند محمد أركون، دار الطليعة، بيروت، 2005، ص112.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

بعدد الأفهام مضروب في ما لا نهاية من مقتضيات الفهم وسياقاته المتحولة والمتغيرة. وحديثي الآن عن العقل سيتغير حالما أنتهي منه، لأن مقتضيات الفهم ستتغير. ومن ثم، سأبجز عن العقل خطابا جديدا. هذه هي الثورة التي أحدثها الخطاب في المعرفة الإنسانية. وعدم إدراك أبعاد هذه الثورة المعرفية لمابعد الحداثة، جعل رواد الحداثة يتحولون إلى تقليديين ومتشبهين بالماضي وأصوليين. " وهذا هو المنزلق الذي انزلق إليه نقاد العقل العربي أو الإسلامي أو حتى الغربي. فهم يستخدمون مفردة عقل على نحو يحيل إلى كيان ما ورائي أو إلى بنية شكلية ثابتة أو كلية على ناقد العقل استخراجها بعد فحص المعارف وتحليل أنظمتها. هذا ما فعله الجابري في نقد العقل العربي. إنه يفترض وجود بنية عقلية ميتافيزيقية تختص بالعقل العربي هي التي تشكل أساس اكتساب المعارف وميادين الإنتاج الثقافي ومظاهره. وهذا ما حاوله أركون نفسه. إنه يعتبر أنّ هناك عقلا إسلاميا له قواعده وآلياته الخاصة التي يمكن استكشافها بفحص أسس المعارف الإسلامية ونقد أصولها... إذن، نحن لسنا إزاء عقول بل إزاء نصوص نشتغل عليها ونعيد اكتشافها. والنص ليس ذا بعد واحد، ليس مجرد أداة للمفهوم أو ناقل للفكرة أو مرآة للمعنى. وإنما هو تشكيل خطابي يُقرأ على غير وجه ووجه"¹

تخضع بنية الخطاب، إذن، إلى حتمية التناقض وبذلك يكون مفهوم الخطاب قد دحض أسطورة "عدم التناقض" في المنطق الأرسطي ومعلنا على لسان جاك ديريدا مثالية "التمركز المنطقي". إنّ الخطاب بهذا المعنى يُبنى من فراغات ويتشكل منها

¹ علي حرب: الممنوع والممتنع (نقد الذات المفكرة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1995، ص، 128. 129.

ليعطي لنا آليات تفكيكه. وهكذا تصبح مقولة "من كان بيته من زجاج لا يرمي الآخرين بحجر" مقولة مثالية ترجع إلى عصر معرفي تقليدي في حين يُدشن العصر النقدي الجديد على قاعدة أنّ كل خطاب هو بيت من زجاج بالضرورة.

وإذا عدنا إلى خطاب العقل عند ابن المقفع نجد بنفس المنطلقات يدّعي الكمال للعقل. ويعتقد أنه جوهر ثابت. ولذلك لا يستطيع أن يفكر ولو للحظة واحدة أنّ العقل يمكن أن يكتفه النقصان. أمّا ابستمولوجيا الخطاب اليوم فهي تعي أنّ ابن المقفع لا يقدم عقلا بل يقدم خطابا. والدليل أنّ ابن المقفع نفسه، لو أعاد كتابة تراثه لكتب خطابا مغايرا، ولاضطرّ إلى تعديل كثير من الأشياء. وربما سيتفطنّ إلى أنّ السلطان أيضا يمكنه التفكير، لأنه إنسان. وكل ذلك دليل على أنّنا بإزاء خطاب للعقل ولسنا بإزاء العقل. فخطاب العقل كغيره من الخطابات ينبي على فراغات. وينسى أن يفكر في أشياء كثيرة، عندما يفكر في شيء واحد. ويسكت عن أشياء، حين يصرح بأشياء. وفي عبارة موجزة، إنّ كل خطاب هو منقود مفكّك متهافت بالضرورة. وفي نصوص ابن المقفع الذي يوهن فيها بقوة العقل ويسيطر بخطابه على أفهامنا فننخدع بمدّ عدم التناقض نكتشف بمعاول الحفر أنّ خطابه منبني على فراغ مهدود متصدّع الأركان. يقول في مثل الجرذ والسنور: "ثم إنّ اليوم وابن عرس لما رأيا دنو الجرذ من السنور أيسا منه وانصرفا"¹ والجرذ عدو للسنور وقد دخل في تحالف معه حتى يأمن شر اليوم على يمينه وخطر ابن عرس من خلفه. ورأى أن لا خلاص له إلا مصالحة السنور والسير إلى الأمام. والسؤال الحفرياتي الذي ما تفتن إليه عقل ابن المقفع يكمن في فعل "انصرفا". فالأعداء المحاصرون للجرذ من الخلف حلّوا الحصار بعد طول انتظار وانصرفوا.

¹ ابن المقفع: كلیلة ودمنة، ص 174.

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

فلماذا لم يستغلّ الجرذ انصراف اليوم وابن عرس ليعدل عن أمر تخليص عدوه ويتراجع إلى الوراء ويتركه في الشرك فريسة للصيد حتى يكون ذلك فرصة فريدة للتخلّص من أحد أعدائه؟ بعبارة أخرى، لماذا أصرّ على قطع حبال السنور وتعرض نفسه للخطر في حين قد زال الخطر من الخلف حيث كان يمكنه الانسحاب؟ أليس ذلك نوعاً من الغباء العقلي؟ لنقل ابستمولوجيا إنه اللامفكر فيه في الخطاب المقفعي.

وهكذا فما ذهب إليه ابن المقفع هو ما فكّر فيه. وما أثبتناه هو ما لم يستطع التفكير فيه. وذلك هو عقل الإنسان. لا يمكن أن يدرك الكمال ولا يستطيع حتى أن يفكر بطريقة كاملة غير متناقضة. ولو كتب غيرنا القصة نفسها وبالوظائف نفسها لأتت مختلفة حتماً. كما أن مبدأ عدم التناقض المنطقي أصبح اليوم داخل في حيّز أسطورة الخطاب العقلي. والحل يكمن في قناعتنا بأنّ الإنسان ناقص بفكره. وأنّ الحكمة في خلقنا على هذا النقصان هو أن نختلف ونتعاون في تحقيق اليقين الجماعي دون الفردي. ولذلك يرى كل منّا غيره خاطئاً وغير صحيح. وهذا هو سرّ وجودنا. وجودنا أن نختلف وأن يهدم كل منا خطاب الآخر من أجل أن نتكامل ونحقق رسالتنا الكونية التي هي رحيميّة الاختلاف. هذه هي الحكمة من خلقنا مختلفين

واعتقاد ابن المقفع في جوهرانية العقل أوصلته إلى نقيضه وهو تقديس العقل، في الوقت الذي يعارض أنصار العقل التقديس أصلاً. وهو ما دفعه إلى أن يطلق العنان لخياله وبالعقل في تمجيد العقل وغالى في مدحه حتى انقلب السحر على الساحر. وقع في الطوباوية والمخيالية والحلم. وقديماً قيل:

أبلغ ما يطلب النجاح به الـ طبع وعند التعمّق الزلل

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

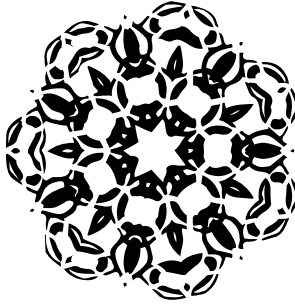
وهذا التعمق أو الغلو هو الذي جعل العقل مقدسا عنده حتى جعله بديلا عقائديا. إنّ خطاب العقل عند ابن المقفع شبيه بمن يبني مدينة في رمال متحركة. إنه بهذا العقل المثالي والطوباوي يبني "جمهورية أفلاطون" الثانية بعد أفلاطون، ويشيد "المدينة الفاضلة" الأولى قبل الفارابي.

هذه هي صورة خطاب العقل المقفّعي من وجهة نظر تحليل الخطاب. أمّا إذا نظرنا أيضا من داخل البنية التقليدية للعقل، فإنّ السبب الذي أدى إلى سقوط ابن المقفع في نقيض العقل، رغم حضوره المكثف في خطابه، هو غياب خطاب نظري للعقل في تراثه. أي أنه تعامل مع العقل تعاملًا أدبيا سرديًا إبداعيا. بل تعامل تمجيدي عقائدي. وهذا يعني غياب خطاب معرفي شبيه بما قام به الجاحظ على الأقل. وهو عمل لا بد منه حتى يستطيع توظيف فكرانية العقل داخل نظام معين للفكر.

إنّ الحلّل الأساسي الذي وقع فيه ابن المقفع في تقديري يكمن في اكتفائه بالوظيفة الفكرانية للعقل، ولم يتوسع ليشمل تفكيره المحتوي المعرفي لهذا العقل. إنّ عدم اعتماد ابن المقفّع خطابا معرفيا وعدم تفكيره في التأسيس الاستيمولوجي لهذا العقل هو الذي جعل الخطاب عنده يقف عند حدوده النفعية، ويحتوي عدة وظائف أبرزها الوظيفة السلوكية السياسية. وأبرز مثال على ذلك أنه لم يقدم لنا خطابا معرفيا كما فعل ابن خلدون مثلا بالنسبة إلى قانون "العصبية". بل اكتفى بالوظيفة الفكرانية لهذا القانون المتحكم في نواميس التاريخ. لقد يّتنا كيف أنّ التحالف بين القبرة والطيور من ناحية، وبين القبرة والضفادع من ناحية أخرى. كان تحالفا يقوم على العصبية العرقية مع الطيور وعلى العصبية المصلحية مع الضفادع. والعصبية مبدأ استيمولوجي، أو بالأحرى هو أصل من أصول علم العمران

تحليل خطاب العقل في تراث ابن المقفع... د. مختار الفجاري

البشري عند ابن خلدون. كشف عنه ابن خلدون بعد أن نبش في الخطاب التاريخي معتمدا قولته الشهيرة: " التاريخ في ظاهره لا يزيد عن الإخبار... وفي باطنه نظر وتحقيق " ¹ ولما كانت العصبية مع ابن المقفع تندرج ضمن اللامفكر فيه أي ضمن "المعرفي" المهمّش المنبوذ، فإنّ ابن خلدون، هو الذي كشف عن هذا النص الغائب، عندما جعل من العصبية مبدأ من مبادئ علم العمران البشري. وهذا يعني أنّ ابن المقفع اكتفي بالكشف عن "وظيفتها الفكرانية" في حين كشف ابن خلدون عن "محتواها المعرفي". إنّ فكرانية الخطاب في تراث ابن المقفع هي الوجه الأساسي الذي جعل هذا الخطاب لا يختلف عن الخطاب العقائدي والوثوقي السائد في عصره اختلافا بنويا كبيرا وهو ما يجعلنا نقرّ أنّ النقلة المعرفية التي تحدثنا عنها في مستوى التحليل تبقى نقلة محدودة.



¹ ابن خلدون: المقدمة، ص282.